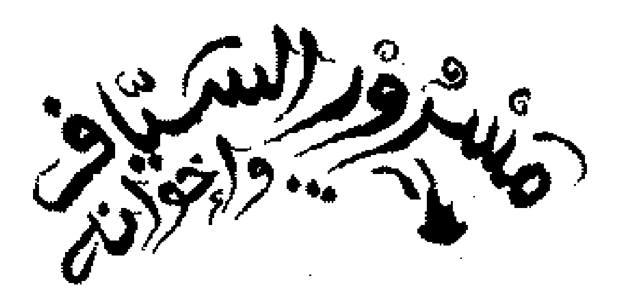

جمال بدوي
مسرور السياف وإخوانه
حلمي التوني



الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

جمال بدوى

مسرور السياف.. وإخوانه

دار الشروق

تقـــديـــم

« مسرور السياف » أشهر قاتل فى تاريخ الدولة العباسية ، بل فى تاريخ العصور الوسطى . . لم يكن قاتلا مأجورًا مثل بعض المحترفين الذين يقتلون بالأجر . . ولكنه كان موظفا عموميا فى بلاط الخليفة هارون الرشيد . . يلازمه كظله ، وينفذ إرادته بقطع رؤوس الخصوم المغضوب عليهم . . « فمسرور» كان مجرد أداة لإزهاق الأرواح مثل « عشماوى » الذى يحرك ذراع المشنقة فتتهاوى جثة المشنوق فى البئر ، أو ذلك الخبير الذى يضغط على الزر فيصعق الشخص المحكوم عليه بالإعدام وهو جالس على الكرسى الكهربائى . .

وأنا لا أتناول ـ هنا ـ مسرورا السياف كشخص فنحن لا نعرفه ، ولا نحمل له فى نفوسنا ضغينة . . ولكنى أقدمه فى هذه الفصول كظاهرة ملازمة لنظم الحكم الاستبدادية . . حيث يملك الحاكم كل السلطات . كلمته هى القانون . . وإرادته فوق كل إرادة . . وحياة الأنسان معلقه بكلمة تخرج من فيه . . أو إشارة من يده فتتطاير الرؤوس . . وتتساقط الجماجم . . وتسيل الدماء . . وقد يتعجل الحاكم فى الحكم على مظلوم ثم تظهر براءته ، ولا يكون مجال لإعادة الروح إلى الجسد الطريح ، كما حدث للقاضى الفضيل بن عمران ، وكان يعمل مؤدبا ومعلما لجعفر ابن الخليفة المنصور العباسى ، ثم ذهب الوشاة وهمسوا فى أذن الخليفة بأن الفضيل يعبث بابنه ، فما كان منه إلا أن كلف (مسرور) بقطع رأس القاضى ، وانطلق السياف لأداء مهمته ،

وعندئذ علم الصبى جعفر بالأمر ، فأصابه الجزع لما كان يعلمه من كذب الوشاية ، ولما عهده فى الرجل من عفة وفضيلة ، وانطلق فى إثر السياف ليمنع الجريمة ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان . . ووجد أمامه جثة الرجل ودماؤه لم تجف (!!) وهالته الصدمة . . ونعى على أبيه قتل رجل برىء بغير جرم ولاخيانة . . فقال له السياف : أبوك أمير المؤمنين . . يفعل ما يشاء . . وهو أعلم بما يصنع (!!).

هذا هو دستور الطغاة . . إذا جاز أن يكون للجور والظلم دستور . . فلا أحد يحاسبهم على أفعالهم . . ولا أحد يسألهم عن دماء الناس . . ولا أحد يحد من جبروتهم . . وعندما اتخذ الرشيد قراره الخطير بالقضاء على البرامكة ، لم يستشر أحدا . . ولم يقدمهم إلى القضاء ليعطيهم حق الدفاع عن أنفسهم . . ولم يكلفه الأمر سوى إشارة إلى (مسرور) ليأتيه برأس جعفر بن خالد البرمكى ، صديق عمره وأحب الناس إليه ، وبعدها انطلقت الجحافل إلى قصور البرامكة تقبض عليهم ، وتصادر أموالهم ، وتودعهم السجون ، فباتوا فى محبسهم دون أن يستمع أحد إلى دفاعهم عن أنفسهم ، وتركوا المؤرخين فى حيرة من أمر هذه النكبة ومسبباتها ودوافعها ، فذهبوا فى تفسيرها كل مذهب .

كان هذا نهج الطغاة فى تلك العصور فى الشرق وفى الغرب ، وكان الأباطرة والملوك والبابوات يتصرفون فى أرواح البشر كما يتصرفون فى أملاكهم الخاصة . . وانتقلت هذه النظم الفاسدة إلى الحكومات الإسلامية ، وتحول الخلفاء والسلاطين والولاة ـ بعد عصر الراشدين ـ إلى أنصاف آلهة ، لا راد لإرادتهم ، ولا معقب على حكمهم ، فهم الحكام والخصوم والقضاة والمحققون والمنفذون . . لا مجال للفصل بين السلطات . . ولا مكان للتحقيق والتمحيص واعتبار المتهم بريئا حتى تظهر براءته (!!).

ونحن عندما ننتقد تصرفات هؤلاء الحكام المستبدين ، فإننا لا نحاسبهم بحساب عصرنا . ولا نلومهم لأنهم لم يأخذوا بالأساليب القانونية والتقاليد الديمقراطية التى توصلت إليها المجتمعات العصرية ، وإنما نحاسبهم بمقتضى الأصول الإسلامية التى أمرت بالعدل والإحسان ، وحرَّمت الجور ، وجرَّمت الظلم ، وحفظت دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت لروح الإنسان حصانة لا تُمس إلا قصاصا . . ولكنهم اجتنبوا هذه التعاليم السامية والمبادىء الراقية التى جاء بها الإسلام . . وأخذوا بما كانت عليه الأمم الغابرة من استبداد وظلم . .

ولقد رأيت أنه من المفيد أن نستخرج هذه الصفحات من تاريخنا ونقرأها جيدا ليكون لنا منها عبرة . . ونحذر الوقوع فى شَرَك الاستبداد والطغيان . . ونحمى أنفسنا من عبث مسرور السياف وإخوانه .

جمال بدوى

مصر الجديدة اغسطس ١٩٩٦

اغتيـــال ابن المقفـع

هذا معارض من ألـف عام وإن شئت الدقة ، فقل مـن ألف و ٢٣٠ سنة حين لقى مصرعه فى أبشع ميتة يموتها إنسان . . وإلا . . فما قولك فيمن يوثق بالحبال كما توثق الأسود فى شباكهـا . ثم تنهال عليه سكين الجزار فتقطع لحمه قطعة وراء قطعـة . . ثم تُلقـى فى النار أمـام ناظـريه . . فـلا يتراجع . . ولا يتخاذل . . ولا يستعطف جزاره أو يستجديه الرحمة . . وإنما يلقـى فى وجهه بهذين البيتين يجود بهما مع آخر انفاسه :

إذا مـــا مـــات مثلى مـات بمـــوتـــه خلـــق كثير
وأنـت تموت ليـس يـدرى بموتـك لا الصغير والكبير

ولاتـزال جريمـة اغيتـال الأديب العظيـم عبـد الله بـن المقـع تشغل بـال الباحثـــين والمفكرين ، وكـل يذهب فى تعليلهـا كل مذهـب ، ولايـــزال اسمه يرن فى دنيا السياسة والعلـم والأدب ، ولايزال علماء السياسة يحفظون له آراءه فى تنظيم الدولة ومكافحة الفسـاد ، بينما لا يحفظ أحد اسم الوالى ـ الجزار ـ الذى نكّل بـه وقطع أوصاله إرباً إربًا . . وصدقت عليـه لعنة ابن المقفع . . فهلك دون أن يدرى بموته لا الصغير . . ولا الكبير . .

ولم يكن عبـد الله بـن المقفع معـارضا انقـلابيا هـداما يستحـق الرجـم أو السحل أو السمـل ولا حتى الضرب بـالفلقة ، فهـو لم يشهر فى وجـه الدولـة

سيفا . . ولا أدار تنظيما سريا لقلب نظام الحكم ، ولا تخابر مع دولة أجنبية ضد الدولة التى يعيش فى كنفها ، ولا تآمر مع الرجعية الغاربة ضد التقدمية الزاحفة . . وإنما كل ما كان يملكه هو سلاح الكلمة الصادقة الحرة الشريفة . . يقولها ورزقه على الله . . ولم يقترف جرما أكثر من أن قدم النصح للخليفة ، وأشار عليه بما ينبغى عليه أن يفعله ليجتث جذور الفساد ويتخلص من بطانته المفسدة ومستشاريه الضالين المضللين الفاشلين . . واقترح عليه أن يعطى العيش لخبازه ذى الخبرة اللبيب ، ويكافح الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ . . ولم يبخل على الخليفة بمقترحات محددة لتنظيم الإدارة وضبط أموال الدولة وصيانتها من العبث ، وكان قصده فى كل ما قدَّم من نصح ونقد ـ ليس هدم الدولة ـ وإنما شد أزرها ، وتوطيد أركانها ، وتعزيز هيبتها حتى يزدهر العدل ، وينحسر الظلم ، ويتحقق الرخاء .

ولم يكن الحاكم ممن يسمعون النصح أو يتقبلون النقد ، فهو يحسب كل نصيحة تطاولا على مقامه الأسنى ، وكل نقد اجتراء على ذاته المقدسة ، لم يكن الخليفة ، فى ذلك الزمن من صدر الدولة العباسية فى رجاحة الصديق ، أو مرونة عمر ، أو سماحة عثمان ، أو فقه على رضوان الله عليهم أجمعين ، ولم يكن من ذلك الرعيل الصالح الذى يفهم النصيحة كما جاء بها الإسلام ، ولكنه كان أبا جعفر المنصور ـ وما أدراك ما المنصور ـ قوة واقتدارا . . فهو الجبار الذى يأخذ بالشبهة . . ويحاسب الناس على خطرات أفئدتهم . . عملا بوصية أخيه الإمام إبراهيم : (من اتهمته فاقتله) . . والاتهام فى ذلك العصر يعنى الشك . . فالشك فى الولاء للنظام قرينة تكفى لقطع الرقاب دون تحقيق أو مساءلة . .

وشاء حظ صديقى عبد الله بن المقفع ، أن يشهد المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الأموية ، ويرى مصرعها بسيوف بنى قومه الفرس ، ويشهد مولد الدولة العباسية على أكتاف شيعته وأهله ، فكان عباسىّ الهوى والفؤاد ، ولم يكن

عنده مـا يدفعـه إلى البكاء على أفـول نجم الأمويين وقـد كانـوا حربـا على بنى جنسه الموالى ، ولم يكـن عنده مـا يدفعـه إلى التآمـر على النظام الجديـد ، وقد حظى فيه الفرس بالنفوذ والجاه والثراء . . بل كان عنده ما يحفزه على الولاء لهذه الدولـة التى حظـى فيها ابن المقفـع نفسه بـالثقة حيث عمـل كاتبـا فى قصور الارستقراطيـة الحاكمة من أعمام الخليفة المنصـور . . ولكن هذه الثقة المتبـادلة بين النظام والكـاتب الحر لم تتحول مـن جانبه إلى مـداهنة ورياء وتملـق ونفـاق للحكـومـة . . وإنما فـرضــت عليه أن يكـون أمينـا فى نصحـه . . شريفـا فى قصده . . شجاعا فى رأيه . . خبيرا بأوجه الإصـلاح بمقتضى ثقافته العريضة ومعرفته بأصول الحكم فى الدولة الساسانية .

تلفَّت ابن المقفع حـوله فوجـد الاستبداد يتغلغـل فى قمة الـدولة ، ورأى الفساد يضرب أطنـابه فى مؤسساتها الإداريـة والمالية والقضائية والعسكـرية ، ووجد الخلل يتسرب إلى الحكم على أيدى فئة مـن الوصوليين احترفت الإحاطة بالحكام لتضليلهم والتغرير بهم وحجب الحقيقة عنهم ، فالأموال الجمَّة تحمل من الأمصار والولايات إلى بغداد ـ عاصمة الخلافة ـ بدون سـجلات تضبطها أو دفاتر تحاسب الجباة على مـا تحت أيديهم مـن أموال ، والقضاة يتضـاربون فى أحكامهم فى القضية الواحدة من بلد إلى بلد لعـدم وجود قانون موحد يرجعـون إليـه فى أحكامهـم ، وقادة الجنـد ـ نجـوم العهد الجديـد ـ يعيشـون فى الأرض فسادا ، وينشرون بين العامة دعاوى الذل والخنـوع للحاكم المستبد تحت ستار الطاعة لـولى الأمر ، وبلغوا فى ذلك مبلغا جسيما حتـى قال قائلهم : لـو أمَرَنا أميرُ المؤمنين أن نستدبـر القبلة فى صـلاتنا . . لسمعنـا وأطعنا . . ! ! ووجـد قصر الخلافة وقد أصبح مرتعا للجهال والمنتفعين والباحثين عن المغانم بأسهل السُبل ، رأى ابن المُقفع كل ذلك واستـوعبه ، وعرف بحكم تجربته العملية فى قصـور الأمويين عـوامـل الفسـاد التـى تسرى فى نخاع الـدولـة حتى تتقـوض أركانها ، وينهار بنـاؤها ، وكان يدرك أن السكوت عـن الفساد جريمة يـأباها

ضميره اليقظ ، وحسه المرهف ، وعقله الراجح ، وتفكيره الناضج ، فانهيار الدولة العباسية يعنى نهاية نفوذ بنى قومه ، ووقوعهم تحت سلطة قوى جهوله لا يدرك خطرها إلا علام الغيوب ، ومن هنا جاء حرصه على قوة الدولة العباسية وتطهرها من كل عوامل الفساد ، وحمل ابن المقفع قلمه وكتب رسالة اسماها (رسالة الصحابة) ولا يعنى بذلك صحابة الرسول ﷺ ، ولكن يعنى صحابة الخليفة أو بطانته وحاشيته ، فهو يرى الدنيا بعيونهم . . ويأتمنهم على أسراره ، ويستشيرهم فى أموره ، ومن ثَم يفترض أن تكون هذه البطانة على الوجه الذى يتمناه من حيث الأمانة فى الصحبة ، والنزاهة فى المسلك ، والشجاعة فى النصح .

وقد وجه ابن المقفع إلى هؤلاء الصحابة نقدا مريرا ، ولكى يحتاط للأمر قال إنهم ـ قبل خلافة المنصور ـ ارتكبوا أعمالا مفرطة القبح ، داعية للأشرار ، طاردة للأخيار ، ذلك أن الخليفة كان يقرِّب أوغاد الناس وسفْلَتهم ، فهرب الخيار من صحبة الولاة ، حتى إن قوما من صلحاء البصرة ـ وفيهم ابن المقفع ـ أتوا دار الخلافة أيام السفاح ، فرفضوا زيارة الخليفة لما يعلمون من شرور بطانته ، وسوء سيرتهم ولذا فهو ينصح المنصور بأن يختار صحابته من ذوى الرأى والأمانة والعدل ، فلا يصح للخليفة أن يقرِّب إليه إلا رجلا أتى بمكرمة عظيمة ، أو رجلا له ميزة من علو النسب أو حُسن البلاء ، أو رجلا له من الشرف وجودة الرأى والعمل ما يؤهله لذلك ، أو رجلا فقيها مصلحا ينتفع الناس بفقهه ثم انتقل ابن المقفع إلى عرض أفكاره فى إصلاح نظام القضاء الذى هو أساس الملك ، فرأى وضع قانون رسمى يلتزم به القضاة فى جميع أنحاء الدولة ، على أن يكون هذا القانون هو المرجع فى إصدار الأحكام التى لا يوجد لها نص غير مختلف عليه من الكتاب أو السنة ، فأما ما ورد فيه نص مختلف فيه فيجب أن يترك إلى ولاة الأمور ينظرون فيه باعتبار واحد وهو المصلحة العامة ، والفقهاء ليس لهم وضع قوانين وإنما عليهم أن يجتهدوا فى

المسائل من الناحية العلمية النظرية ، ثم يدلوا بآرائهم إلى ولى الأمر ، وهو المقنن وحده .

ويحبذ العلامة أحمد أمين هذا الاقتراح ويرى فيه وجاهة لأنه يتفق فى كثير من نواحيه مع الآراء الحديثة فى التشريع ، ويقول لو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير فى الإصلاح الاجتماعى وخاصة من الناحية القضائية ، بينما يربط يوسف أبو حلقة بين هذه الفكرة التى ابتكرها ابن المقفع منذ ١٢ قرنا ومشروع نابليون بونابرت حين دعا لجنة من كبار رجال القانون والتشريع وطلب منهم توحيد القانون الفرنسى توحيدا تاما ، وكان أن أخرج علماء القانون سنة ١٨٠٤ (القانون المدنى) الذى عُرف باسم (قانون نابليون) وقضى بذلك على فوضى التقنين وما كانت تتعرض له المناطق الفرنسية من تفكك .

وانتقد ابن المقفع مغالاة قادة الجند فى فهم معنى الطاعة للخليفة ، وساقته هذه المعانى إلى بحث حدود الطاعة للحاكم ، وذكر المبدأ الأصولى المشهور (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) وقال : إن قوما فسَّروا هذا المبدأ تفسيرا معوّجا ، والصحيح أن الخليفة يطاع فيما لا يطاع فيه غيره ، وبيان ذلك : أن هناك فرائض وحدودا بيّنها الله ، وفى هذا لا يُطاع أمير المؤمنين لو أمر أمرا يخالفها ، ولكن هناك أمور الدولة حسب الزمان والمكان ، وهذه لا تترك فوضى ولكن للناس أن يشيروا بآرائهم ، وعلى أولى الأمر أن يفكروا ويتدبروا ، فإذا رأوا رأيا وجب على الناس إطاعته ، وإن رأى الناس فيه نقصا أو عيبا أو خطأ نصحوا ولاة الأمور بآرائهم .

وفى شأن تدخل الجند فى الشئون المالية للدولة ، نصح ابن المقفع أمير المؤمنين بأن يحول بين الجنود وذلك ، وعلل رأيه بأن (ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة) . ويستصوب أحمد أمين هذا الرأى لأن كثيرين من هؤلاء القواد اعتزوا بسلطانهم وجنودهم ، فظلموا الناس ، فلما عوقبوا على ظلمهم استغلوا

ما تحت أيديهم من أموال ، وما تحت طاعتهم من جند ، فخرجوا على الدولة وسببوا لها كوارث عديدة . وينصح الكاتب أمير المؤمنين بأن يعيد النظر فى اختيار رؤوس الدولة بعد أن اكتشف أن هناك مرءوسين أكفأ من رؤسائهم ، فلو وضع الأكفاء والأخيار فى موضع القيادة لكان من ذلك خير عظيم .

وينصح ابن المقفع الخليفة بتثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية ، وتعليمهم الكتابة والتفقه فى الدين ، وتعويدهم الأمانة والعفة والتواضع ، واجتناب الترف ، ثم ينصحه أخيرا بتقصى أحوال الجند ، والتعرف إلى أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم حيث كانوا ، وأن يُعينّ لذلك الثقاة الذين يخلصون له ، ولا يكتمون عنه شيئا ، وألا يستكثر ما يُنفق فى هذا السبيل ، فإن فى ذلك الحزم واستئصال الشر قبل استفحاله .

وتحدث ابن المقفع عن الفوضى الناجمة عن جمع (الخراج) وهو المصدر الرئيسى لأموال الدولة ، وانتقد عدم وجود دفاتر أو سجلات تحصل بمقتضاها الأموال المقررة على الأرض ، .واقترح للإصلاح أن تُمسح الأرض ويفرض عليها المال حسب جودتها على أن يعرف كل مالك ما عليه ويدوّن ذلك فى سجلات تحفظ أصولها فى دواوين الدولة ، ففى هذا « صلاح للرعية وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغَشْم العمال » وختم مقترحاته فى إصلاح الخراج بحُسن اختيار القائمين بهذا العمل وشدة الرقابة عليهم واستبدالهم عند ظهور الخيانة عليهم .

والمدهش أن الدولة عملت على تنفيذ مقترحات ابن المقفع ، ولكن بعد أن فقد حياته ودفع ثمن جرأته على نقد النظام الحاكم ، ففى مجال تقنين القوانين اقترح المنصور على الإمام مالك نسخ كتبه وتوزيعها على الأمصار ليعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، ولكن الإمام العظيم رفض الاقتراح لأنه يحجر على حرية الاجتهاد ، ولعلمه أن صحابة النبى ﷺ تفرقوا فى الأمصار ، وقد روى

كل منهم رواية تختلف عن رواية الآخر ، فقال للمنصور : دع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ، فلما مات المنصور حاول حفيده الرشيد أن يفعل نفس الشيء مع الإمام مالك الذى أصر على موقفه من حيث الرفض فقال : « شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق « الموطأ » فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب . » .

وأخذت الدولة برأيه فى إصلاح نظام الخراج فوضع الإمام أبو يوسف ـ صاحب أبى حنيفة ـ كتابه الشهير (الخراج) بناء على طلب الرشيد ليكون كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج وفق الأصول الفقهية وليكون مانعا للمظالم .

فأنت ترى أن صيحة ابن المقفع لم تذهب سُدى ، وأن كلمته لم تكن صرخة فى واد حتى ولو لم تعترف الدولة بأنها استجابت لأفكاره ، فمن عادة الحكومات المستبدة أن تستكبر على النصيحة ، وتستعلى على النقد ، ولكنها فيما بينها وبين نفسها تأخذ به ثم تتظاهر بأنها تحركت بمحض اختيارها حتى لا تعطى لمعارضيها فرصة الإدلال عليها ، وهو ـ كما ترى ـ تصرف ينم عن ضعف الشخصية ، لأن الحكومة القوية لا تجد حرجا فى النزول على رأى المعارضة مادام هذا الرأى يهدف إلى إصلاح العيوب وسد الثغرات والسعى نحو الكمال ، بل إن الحكومة المستبدة لا تتورع عن كتم أنفاس المعارض إذا اشتمت منه رائحة الاستعلاء عليها ، والتمست فيه تعمقا فى كشف معايبها وفضح خباياها . . ولعل هذه الأفكار السوداء جاشت فى نفس المنصور وهو يقرأ (رسالة الصحابة) رغم أن ابن المقفع تعمَّد أن يغفل اسم أمير المؤمنين المقصود بالرسالة ، ربما زيادة فى الحيطة والتقية من غدر المنصور ، وربما أملا فى أن تكون الرسالة موجهة إلى أى حاكم فى أى زمان ومكان ليستفيد بها

تتضمنه من برامج إصلاحية . . ومع ذلك لم تفلح كل هذه الحيطة فى نجاة ابن المقفع من بطش المنصور . فكانت إشارته إلى أحد عماله بأن يقتل ابن المقفع .

ولكن بعض المؤرخين يرون أسبابا أخرى لحنق المنصور على ابن المقفع . إنهم لا يختلفون على أن المنصور هو الذى أوعز إلى سفيان بن معاوية ـ واليه على البصرة ـ باغتيال ابن المقفع . ولكنهم يختلفون حول الأسباب . .

فمنهم من يرى أن شبهة الزندقة لحقت بابن المقفع ، خاصة أنه كان حديث عهد بالإسلام ، ولكن يُرد على ذلك بأن تهمة الزندقة كان عقابها الإعدام علنا . . ولا تستلزم تدبير جريمة فى الظلام . .

والبعض الآخر يرى أن السبب الذى أثار حفيظة المنصور على ابن المقفع ، أن الأخير ركب متن الشطط عندما دبج كتاب الأمان لعبد الله بن على حتى يوقعه المنصور ، فضمنه عبارات جارحة لم يكن يليق أن تنسب إلى لسان خليفة فى مكانة المنصور وتلك قضية هامشية تستحق التوضيح .

كان عبد الله بن على أحد زعماء البيت العباسى وقد جاهد وأبلى فى سبيل إقامة الدولة على أمل أن يعينه المنصور وليا لعهده . ولكن المنصور غدر به ، إثر توليه الخلافة ، ونحاه عن ولاية العهد فأظهر التمرد والعصيان وقاد جيشًا كبيراً من جنود الشام ، ولكنه هزم على يد أبى مسلم الخراسانى فلجأ إلى أخيه عيسى بن على حيث يقيم فى البصرة ، وذهب عيسى يشفع لأخيه عند المنصور فأظهر استعدادا طيباً للصفح عن عمه .

كما وافق على أن يوقع له (كتاب أمان) حتى تقر نفسه ويزداد طمأنينة ، وعاد عيسى إلى البصرة وطلب من كاتبه عبد الله بن المقفع . . أن يعد الكتاب المذكور حتى يوقعه المنصور ولما كان عيسى يعلم أن الغدر والخديعة من أبرز

صفات ابن أخيه المنصور فقد شدد على كاتبه أن يدبج الكتاب بكل عبارات الحيطة والاحتراز حتى لا يترك للمنصور ثغرة ينفذ منها للغدر بعمه عبد الله بعد توقيع الوثيقة .

واستجاب ابن المقفع لطلب سيده عيسى ، وعكف على إعداد الكتاب كما أمر ، ولكنه ــ كما يقول الدكتور أحمد شلبي ــ ركب متن الشطط والإسفاف ، فما كان له أن يكتب على لسان الخليفة عبارة مثل :

« وإن أنا نلتُ عبدَ الله بن على بمكروه . . فأنا نَفِيٌّ من محمد بن على بن عبد الله (أبيه) ومولود لغير رشده أى ولد سفاح وزنا وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى . . وأنا متبرئ من الحول والقول ومدع ، وكافر بجميع الأديان ألقى ربى على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . . إلخ » .

فهل كان من المعقول أن يتقبل المنصور ، وهو المشهور بالجبروت ، مثل هذه العبارات . . ؟ .

وما حدث هو أن المنصور لم يكد يقرأ الكتاب حتى غلى الدم فى عروقه ، وسأل عن كاتبه ، فقيل له : ابن المقفع . ! فقال : فما أحد يكفينيه . . ؟ وكانت هذه العبارة القصيرة تعنى الحكم بالإعدام على ابن المقفع . . وعهد إلى سفيان بن معاوية والى البصرة بتنفيذ الأمر وما إن تلقى سفيان الإشارة حتى هش وبش . ووجدها فرصة لا تعوض لينفس عن حقده القديم على ابن المقفع ، وأخذ ينسج شباكه حول فريسته حتى ظفر بها ، وعندما وجد ابن المقفع نفسه داخل الأسر استجار بالله أن يصفح عنه ، ولكن الرجل لم يرق قلبه ، وقال له : أمى مغتلمة كما كنت تقول إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحدا ! وتفتق ذهنه عن أبشع فنون التعذيب ، فأمر بتنور أشعلت فيه النيران ،

وجعل يقطع من جسم ابن المقفع شريحة بعد شريحة . . وهو حى . . ويلقى بالشريحة فى التنور ليرى المسكين أطرافه وهى تقطع ثم تحرق ، قبل أن تحرق بقيته دفعة واحدة آخر الأمر .

على هذا النحو البشع . تم القضاء على قبس من النور الوهاج أضاء فى سماء الثقافة العربية علماً غزيراً ، وحكمة بالغة ، وبلاغة فائقة . ولم يكتمل بعد عمره أربعين ربيعًا . وصفه الجاحظ فقال « كان جوادا فارساً جميلا » وقال عنه محمد بن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولاكان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع » .

ويقول عنه أحمد أمين : إنه من أقوى الشخصيات فى عالم الأدب العربى قوى فى خلقه ، قوى فى عقله وعلمه ، قوى فى لسانه أما خلقه فنبل وكرم ، وتعهد لذوى الحاجات يواسيهم ، وتقدير دقيق للصداقة ، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الأجدر والأنبل ، ورغبة شديدة فى إصلاح الراعى والرعية خلقيا واجتماعياً . . إلى ظرف الخاصة ، والتمسك بآداب اللياقة ، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق .

نهاية فاتح السند

وأنت تصوم فى اليوم العاشرمن رمضـان لا مناص من أن تطوف بك ذكرى هذا اليوم المجيـد القريب [1] ، ولابد أن تسترجع أحـداثه وتستعيد وقائعـه ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، فتستشعر فى وجدانـك شيئاً من الفخر والإعجاب بهذا النفر من أهلـك وعشيرتك وقد خلعوا رداء الـذل والضعف والخوف ، ثم أمدهـم الصوم بطـاقة روحية قوامهـا الصبر والجلد . . وأبدلهم الله من بعـد خوفهم أمنا . . ومن بعد ضعفهم قوة وعز ما . فانقضوا على عدوهم يغسلون عار الهزيمة .

ولكنى لسن أسرد عليك شيئـاً من أحداث هـذا اليوم المجيـد القريـب فقد فاضت بها أقلام الكتاب والمعلقين . بل سأغوص بك فى بطون التاريخ لنعيش معاً وقائع يـوم شبيه ليومنا القريـب وإن باعدت بينهما فروق الـزمان والمكان ، فبينهما من فروق الزمان ثلاثة عشر قرنًا أو تزيد ، وبينهما من فروق المكان ما هو قائم بين بـلاد السند ، وبين هضبـة الجولان وصحراء سينـاء ، وما بينهما مـن وجوه الشبه فـإنه موضوع حديثنـا اليوم ، فكلاهما وقع فى العـاشر من رمضـان وكلاهما حقق للمسلمين نصراً وعزاً ، وإن كان أولهما لم يـأخذ حظه من الشهرة والذيوع عند جمهور المسلمين ، فليس هذا ذنب اليوم المقصود ، ولكنه مسئولية جمهرة الكتاب الذين تعودوا على التركيـز على المعارك الكبرى اللامعة فى تاريخ

---

(١) يوم العبور المجيد فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

الإسلام فهم لا يملـون من الحديث عنهـا وترديـد أمجادها . وليس فى هـذا من مأخذ بشرط أن يواكبه اهتمام آخر بغيرها من المعارك والملاحم والأيام المجيدة فى تاريخنا العظيم ، ولك أن تعجب بهذه الحظوظ التى تفرض أحكامها على الأيام كما فرضتها على الأفراد والأشخاص ، فمنها ما هو شهير ذائع الصيت ، ومنها ما هو محروم من أدنـى نصيب من الشهرة والذيوع . ولقـد شاء حظى أن أكون نصيراً للمظلومين والمضطهدين والمحرومين سـواء أكانوا بشراً يتحركون أم جماداً ثابتًا أم أيامًا مستكنة فى عمر الزمان ، ولهذا رغبت فى أن أكشف لك الستر عن وقائع هذا اليوم المجيد البعيد ، وأجلو لك ما سبقه من ظروف ، وما دار حوله من أحداث وما انتهى إليه من نتائج .

فى بلاد السند

والعاشر من رمضان الذى أقصده وقـع فى أخريات القرن الهجرى الأول . فى زمن انطلقت فيه كتائب الفتح الإسلامى شرقاً وغرباً فبينما جيوش موسى بن نصير ومولاه طـارق بن زياد تعبر المضيـق إلى فاندلوسيـا (الأندلس) ، كـانت جيوش قتيبة بن مسلم تغزو فيما وراء النهر وتلامس تخوم الصين ، كان ذلك فى زمن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، [1] وما إن تولى الحجاج بن يوسف الثقفـى حكم العـراق سنة ٨٦هـ حتى يمـم بصره نحو الجنـوب حيث بـلاد السـند ، بـوابة القـارة الهندية ذات الحضـارة القديمـة والثروات الهائلـة والطرق المفتوحة إلى جنوب شرقى آسيا .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تتجه فيهـا أنظار العرب إلى بلاد السـند ، فقد كان للعرب الجاهليين اتصـالات تجارية بأصحابها براً وبحراً ، حتـى تولد

(١) سادس خلفاء بنى أمية وتولى الخلافة فيما بين عامى ٨٥ ، ٩٦هـ.

لدى العرب إلمام كاف بأحوالها وظروفها الداخلية ، وفى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه تمكن الحكم بن أبى العاص من الوصول بحراً إلى بعض سواحل الهند ، وشجعته الغنائم الهائلة التى عاد بها على مواصلة الكرة ، فبعث بأخيه المغيرة إلى ميناء الديبل . الواقع على مصب نهر السند (على مقربة من مدينة كراتشى الحالية) فانتصر المغيرة وعاد سالمًا غانمًا ، وفى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه توجه الحارث بن مرة العبدى إلى هناك ولكنه قُتل وجميع من معه ، وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا المهلب بن أبى صفرة ذلك الثغر ثم مضى حتى بلغ لاهور واشتبك مع أهلها ولكن دون نتيجة تذكر ، وظل المسلمون يوالون الإغارة على الأقاليم المحيطة بالسند بعد أن أصبحت ملجأ للثائرين والخارجين على سلطان الدولة الأموية ، فتحوا مكران وقندهار حتى إذا كان الحجاج ، بعث إلى مكران سعيد بن أسلم الكلابى فوثب عليه ثائران عربيان فقتلاه ثم لجآ إلى (داهر) ملك السند فلقيا عنده كل ترحيب ومكرمة ، عندئذ بعث الحجاج يستأذن الوليد فى فتح السند وتأديب صاحبها داهر ، إلا أن الوليد لم يجبه إلى ما يريد ، ولعله كان مشفقاً على جيوش المسلمين من اتساع الفتوح ، وبقى على رفضه حتى كانت واقعة أخرى ارتكبها داهر فجنى بها على نفسه وأخرج الخليفة عن تحفظه ، إذ كانت سفينة عربية تمخر عباب خليج عمان وهى تحمل على ظهرها زوجات وبنات تجار عرب ماتوا فى جزيرة الياقوت (سيلان) فانقض عليها قراصنة من الديبل فاستولوا على السفينة واعتدوا على النساء وأسروهن ، فأرسل الحجاج إلى داهر محتجاً وطالباً تخليص السبايا وإرسالهن إلى بلادهن ولكن «داهر» ركب رأسه واستخف برسالة الحجاج فحق عليه العقاب ، عندئذ أذن الوليد للحجاج بفتح السند ، فعهد بهذه المهمة الجريئة إلى زوج ابنته وابن أخيه ، الشاب الجسور محمد بن القاسم ، ولم يكن قد جاوز العشرين وجهزه بجيش قوامه ستة آلاف من خيرة جند الشام والعراق ومعهم عدد مماثل من راكبى الجمال ،

يتبعهم قطار من ثلاثة آلاف جمل يحمل كل ما يحتاجه الجند من مئونة حتى الخيوط والإبر والمسال وكان من معدات الجيش عدد من آلة المنجنيق المخصصة لرمى القلاع والحصون والأسوار بالحجارة وكرات الحديد ، وكان أكبرها منجنيقا ضخما يسمى (العروس) يعمل على تشغيله خمسمائة رجل وسيكون لهذا العروس شأن كبير فى سير المعارك .

الزحف الكبير

وبدأ البطل الشاب زحفه الكبير سنة ٩٢ هـ فعبر مكران حتى بلغ الديبل فحاصرها وبدأت أولى ملاحم القتال بعد أن حاصر المدينة وانهمرت عليها قذائف المنجنيق ، وعلم محمد بن القاسم فيما علم أن الهنادكة يعتقدون فى طلسم يستقر تحت العلم الأحمر الأكبر الذى يرفرف فوق برج المعبد القائم وسط المدينة ويتصورون أن فى الطلسم سر قوتهم ، فأصدر محمد أوامره إلى (العروس) أن تركز قذائفها على الطلسم المزعوم ، وبدأت قوائم البرج تتهاوى وأحجار المعبد تتساقط . . والهنادكة فى ذهول من أمرهم ، واكتشفوا كم كانوا مخدوعين فى أصنامهم فتحطمت هممهم وانهارت روحهم المعنوية فاستسلموا للقائد المسلم فدخل المدينة وقد تردد فى جنباتها التهليل والتكبير ، ولم تأخذ نشوة النصر والظفر برأسه . وظل مقيماً على مواثيق الفتح التى بثها الخلفاء الراشدون . ومنع جنوده من إيذاء أهلها ، وعاملهم معاملة طيبة كريمة بقيت ماثلة فى أذهانهم حتى بعد أن غادرهم . وترك فى المدينة حامية للدفاع عنها ، وتقدم ببقية جيشه فعبر بهم نهر السند إلى مدينة (نيرون) فلما وصلها أتاه وفد كهنتها البوذيين وأبرزوا له أمانًا صدر إليهم من الحجاج ، فأمَّنهم ودخل المدينة دون قتال وفى نيرون بنى المسلمون مسجداً واختطوا مساكن لهم .

ومضى محمد بن القاسم يفتح المدن التى فى طريقه دون أن يلقى مواجهة

تذكر من داهر ملك السند الذى كان يعد العدة لهذا اللقاء الحاسم مع بداية شهر رمضان من عام ٩٤ هـ وتمكن داهر من تجميع جيش قوامه خمسون ألف فارس وتحصن وراء أسوار مدينة (راور) استعدادا للقاء جيش المسلمين . وكان شهر رمضان يوافق شهر يونيو وقد بلغ الحر درجة لا تطاق . . ولكن جيش المسلمين الصائمين لم يأبه لهذا القيظ الفاتك . ولا بسهام العدو التى بدأت تنهمر كالمطر ومضى محمد بن القاسم يقيم جسراً على نهر مهران تحت ستار الليل . ولم تشرق الشمس حتى وجد المسلمون أنفسهم وجهاً لوجه أمام أكبر جيش وأعظم قوة اعترضت طريقهم منذ وطئت أقدامهم أرض السند .

تلفت محمد بن القاسم إلى داهر فوجده على ظهر فيل ضخم يتقدم صفاً طويلا من الفيلة . (المدرعة) التى تثير الرعب والفزع فى النفوس ، وشعر المسلمون بتفوق العدو عليهم فى العدد والعدة ، ولكنهم لم ينكصوا أو يجفلوا أو يتراجعوا ، فقد كانت الشهادة إحدى الحسنيين اللتين ينشدونهما . وفى اليوم السادس من رمضان شد المسلمون النكير على عدوهم . واستمر القتال سجالا أربعة أيام ، وفى اليوم (العاشر من رمضان) قاد داهر المعركة بنفسه بعد أن لا حظ تقدم المسلمين ، وقاد صف الفيلة ليبث الرعب فى نفوس أعدائه . ولكن الحمية ثارت فى نفوس المؤمنين الصائمين . فانقضوا عليه فى بسالة منقطعة النظير ورموا الفيل الذى يركبه داهر بسهم نافذ فذعر الفيل وولى هارباً ، ظل داهر يقاتل راجلا إلى أن قبض عليه جندى مسلم فقتله ، وما إن غربت شمس اليوم حتى كان المسلمون قد فتحوا الحصن ودخلوه ظافرين مكبرين .

نهاية بطل

وتوالت انتصارات محمد بن القاسم ودانت له كبريات المدن ، حتى بلغ

«الملتان» أكبر مدن السند الأعلى وأحصنها على الإطلاق ، فقاتله أهلها وقاوموه وطال حصار المسلمين للمدينة حتى نفدت مئونتهم ، ثم أقبل رجل مستأمن فدلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه أهل المدينة فغوره ابن القاسم ، وأرغمهم بذلك على النزول على حكمه ، ولم تلبث أن خضعت « الملتان » وسلمت ، وفى ذلك الحين تلقى البطل الشاب نبأ وفاة عمه الحجاج فأوقف الفتوح وعاد إلى حصن (راور) . ثم أتاه نبأ وفاة الخليفة الوليد وتولية أخيه سليمان بن عبد الملك . فأوجس ابن القاسم فى نفسه خيفة من الخليفة الجديد ، لأن الحجاج كان من القادة الذين أيدوا الوليد فى نقل ولاية العهد إلى ابنه بدلا من أخيه سليمان ولم يجد الخليفة الجديد من يصب جام غضبه عليه بعد وفاة الحجاج سوى صهره وابن أخيه فاتح السند محمد بن القاسم . فأمر بعزله عن قيادة الجيش وتسفيره مقيداً فى الأغلال إلى العراق . وقبل مغادرته خرج أهل السند يبكونه ويبكون عدله وسماحته وشهامته ونخوته . ويبكون قبل ذلك شبابه الغض الذى سفكه سليمان عندما أمر بتعذيبه حتى الموت . ثم فصلوا رأسه عن جسده وبعثوا بها إلى سليمان لكى تهدأ ثائرته ولم تذهب جهود البطل المسلم عبثاً . فقد فتحت أبواب القارة الهندية للدين الإسلامى ، وتوالى سكان السند بعد الفتح إلى اعتناق الإسلام طواعية واختياراً . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا الإقليم ضمن أجزاء العالم الإسلامى . وأصبحت ملتان مدينة عالمية ، ووضعت الأسس الأولى لقيام حكومة إسلامية . ومن السند انتشرت السيادة الإسلامية إلى سائر أنحاء شبه القارة الهندية وانتشر الإسلام إلى بلدان جنوب شرقى آسيا . ومن الحقائق التى تثلج الصدر أن هذه الفتوح الجديدة تمت على يد «عمرو» بن محمد بن القاسم الذى سار سيرة أبيه فى الشجاعة والسماحة والنخوة . واسترد البلاد التى عادت إلى الكفر بعد مصرع أبيه .

الثقافة العربية

ولسوف تمضى ثلاثة قرون تعيشها السند فى ظل الخمول ، حتى ينهض

لفتحها مرة أخرى محمود بن سبكتكين (التركى) الذى أسس دولة فتية شملت الجزء الأكبر من فارس وبلاد ما وراء النهر ثم امتدت حتى شملت بلاد الأفغان وشمال الهند ، وبعد محمود توالت على بلاد الهند دول إسلامية كثيرة إلى أن كان القرن السادس عشر حيث قامت فيها إمبراطورية إسلامية مغولية ظلت قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الوجود التركى والمغولى إلى ضعف الوجود العربى واندثار اللغة العربية فى شبه القارة الهندية ، فمعظم الجيوش والعناصر والدول التركية والمغولية كانت فى معظمها حديثة عهد بالإسلام ، وقد نقلت معها الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية والمغولية ، ولهذا انتشرت فى المجتمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية (لغة الثقافة فى ذلك العصر) واللغة الأوردية ولم تنتشر اللغة العربية ، وبالتالى لم تزدهر الثقافة العربية فى الهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الإسلامية الأخرى وساعد على هذا أن معظم العلماء والشيوخ الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ماوراء النهر المشغوفين بالحضارة اليونانية والثقافة الفارسية ولهذا تأثرت الثقافة الإسلامية فى الهند بهذه البصمات ، ولم تقم على أسس سليمة قوية من الثقافة العربية ، ولكن ليس معنى ذلك أن الهنود لم يعرفوا اللغة أو المؤلفات العربية . بل لقد عرفوها وانتشرت بينهم وتعلمها الكثيرون منهم وألفوا بها . ولكن الذى حدث أنها كانت أقل انتشاراً وتأثيراً فى المجتمع الإسلامى الهندى إذا ما قورنت ، بالثقافتين الفارسية والتركية المغولية .

ومهما بلغت درجة الثقافة العربية فى المجتمع الإسلامى بالهند فإن ضعفها يرجع إلى زوال الوجود العربى منها بعد نكبة محمد بن القاسم ، ولك أن تتخيل مستقبل اللغة العربية والثقافة العربية فى هذه البلاد الشاسعة لو قدر لهذا البطل الجسور أن يبقى فى الهند وينهج فيها النهج الذى سلكه قادة الفتح الإسلامى فى الشام ومصر وأفريقية فكانت هذه كسباً للعربية لسانًا وحضارة وثقافة .

صاحب التنـــور

ما تخيلت نفسى يوما فى موقع من مواقع السلطة . . ولا تمنيت يوما أن أكون واحدا من رجالها . . ولا أقول ذلك تقليلا من شأن السطة ، ولا تهوينا من أمر رجالها . . فالسلطة ضرورة من ضرورات المجتمع الإنسانى ، لتطبيق الشرائع ، وصيانة الأموال والأعراض ، وحفظ النظام والقانون ، وإدارة شئون الرعية ، وبدونها تُنتهك الحرمات وتستباح الحقوق وتضيع الواجبات . .

ولكن . . كل امرىء ميسر لما خلق له . . فلم تتيسر لى الصفات والشروط التى يجب توفرها فيمن يريد أن يتولى أمر الناس وهناك صفات يجب أن يتحلى بها مثل الحزم والحسم . . والضبط والربط . . والالتزام بقواعد العدل والإنصاف ولو تعارضت مع العواطف والأهواء . . كذلك فإن للسلطة إغراءها وبريقها الذى يخطف الأبصار ، ويجذب المنتفعين وطلاب الحاجات ، فيتزاحمون على بابك مادمت عليه قائما . . فإذا تخليت أو أقصيت . . لا قدر الله . . انفضوا من حولك وتركوك وحيدا تنعى الجحود والنكران .

تلك صورة من صور الضعف الإنسانى ، تراها فى كل زمان ومكان ، وتجدها ملازمة لكل من ترقى صعدا فى معارج الجاه ثم هبط بعد حين ، وقد دفعنى ذلك إلى النفور من هذه الكوميديا السوداء . . فما أقسى أن ترى إنسانا يهبط بعد عز ، ويخلد إلى زوايا النسيان بعد أن كان مقصدا وملاذا .

هناك سبب آخر باعد بينى وبين الاقتراب من السلطة ، ويرجع إلى اعتقاد

دفين بأن رجال القلم والفكر لا يصلحون للحكم ، بل لا يصلحون لممارسة أى شىء إلا فن الكتابة والتعبير . . ولو استرجعت ذاكرتك أسماء بعض الأدباء الذين مارسوا شيئا من السلطة ، فسوف تكتشف أنهم أخفقوا فى ذلك إخفاقا ذريعا . . ولقد رسخ هذا التصور فى نفسى لأننى قرأت فى سن مبكرة قصة حياة الأديب الكبير محمد بن عبد الملك الزيات (صاحب التنور) الذى انتقل من دولة الأدب والشعر إلى دولة الحكم فى البلاط العباسى ، فتحولت رقته إلى عنف ، وصارت عذوبته بطشا وعذابا لكل من وقع فى قبضته ، حتى نضب ما فى فؤاده من قطرات الرحمة والعطف والإنسانية ، وبلغ من جبروته أنه استحدث آلة أسماها (التنور) لتعذيب ضحاياه ، فارتبط اسمه بهذه الآلة الجهنمية ، وشاء الله أن تنتهى حياته بين أسياخها وأسنانها الحادة فتمزق جسمه وتنهش لحمه ، ويتذوق قسوتها كما أذاقها لضحاياه .

وربما ربطت ظروف النشأة المتشابهة بينى وبين هذا الأديب الكبير ، فكلانا ينتمى إلى أسرة تحترف التجارة ، وكلانا جرفه حب الأدب فابتعد به عن حرفة الآباء ، ولكن ما أسرع أن افترقنا . . فقد مضى ابن الزيات إلى البلاط ليعتلى سدة الوزارة ، منساقا وراء طموحه فى المجد والسؤدد ، وبقيت على ولائى لعرش الكلمة راضيا بما قسمه الله لى من متاع الدنيا .

بـــدايـــة :

كان محمد بن عبد الملك الزيات ابنا لتاجر كبير من تجار بغداد ، وكان أبوه . . كما يبدو من اسمه . . يتولى توريد الزيوت والمواد الغذائية إلى قصر الخلافة إبان عصر الرشيد ، فجنى ثروة طائلة جعلته فى مصاف كبار تجار الكرخ ، وكان بالطبع يأمل فى أن تتواصل حرفة التجارة فى وريثه ، لولا أن الصبى أصابته لوثة الأدب والفن التى اجتاحت بغداد فى عصرها الذهبى ،

فتلاطمت فيها تيارات العلم والثقافة ، وازدهرت فيها الفنون والمعارف ، وتزاحم عليها العلماء والمفكرون والشعراء والكتاب من كل صوب ، فى هذا المناخ المترع بأجواء العلم نشأ الصبى ، وعبثا حاول أبوه أن يغريه باحتراف التجارة والإقلاع عن هواية الأدب ـ ويروى لنا صاحب (الأغانى) حوارا دار بين الوالد العطوف والصبى المتمرد يكشف لنا عن مفهوم كل منهما .

قال الأب : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك ، وليضرنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة (يقصد التجارة) وما أنت فيه مكفى ، ولك ولأبيك فيه مال وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه .

فقال الابن : والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه . . أنا أم أنت ؟

ولقد صدقت نبوءة الاثنين . . وانتفع الابن بعلمه فى حقل الأدب فحقق لنفسه مكانا مرموقا واسما ذائعا وثروة طائلة . . وصدق حدس الأب . . حين خسر الابن كل ماجناه ودفع حياته ثمنا للطريق الذى مضى فيه . . بل ثمنا لانحرافه عن طريق الرحمة والإنصاف الذى ينبغى على أى أديب أن يسلكه ولا ينحرف عنه .

لقد مضى الشاب الطموح إلى قصر الخلافة باحثا عن مكان متواضع بين جهابذة العلم والأدب من أمثال الجاحظ والأصمعى والفراء ، يسمع منهم ويأخذ عنهم حتى لفت إليه الانظار بعبقريته المبكرة ، فأصبح حجة ومرجعا فى علوم اللغة ، وفيما يرويه المؤرخون عنه ما يؤكد ذلك .

فيقول البغدادى : « إن أبا عثمان المازنى لما قدم بغداد أيام المعتصم ، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى علم النحو ، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه شك ، يقول لهم المازنى ، ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (يقصد الزيات) اسألوه واعرفوا جوابه ، فيفعلون ، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذى يرتضيه المازنى ، ويقفهم عليه .

وما هى إلا سنوات قلائل حتى أصبح الشاب من أبرز كتاب الديوان ، وبدأت أشعاره تأخذ طريقها إلى الأسماع . . فقال فى المديح والهجاء والفخر والغزل . . وكان يتمتع بنزعة ساخرة وحب للدعابة مع الأصدقاء .

انظر إلى هذه الأبيات التى قالها ساخرا من صديقه عيسى بن زينب وكانت له أنف تشغل نصف وجهه .

يا أنف عيسى جزاكَ الله صالحةً	وزادك اللـه إشراقا ومتسعا
حصنٌ حصينٌ وعز لو تناوله	كسرى الملوك أنو شروان لامتنعا
تركتُ عيسى فيها عندى مخاطبة	له وخاطبت أنفا طال وارتفعا
رأيت أنفا ولم أعلم بصاحبه	فقلت : من صاحب الأنف الذى طلعا
قالوا فتى غاب فيه ، قلت واعجبى	ما إن رأى مثل ذا راء ولاسمعا

الــــوزارة :

ولعب الحظ لعبته الخالدة فى نقل الزيات من مصاف الأدباء والشعراء إلى منصب الوزارة للخليفة المعتصم الذى كان نصيبه ضئيلا من العلم والمعرفة ، مما أتاح لأديب فحل مثل الزيات أن يستحوذ على شئون الدولة فيصبح صاحب الكلمة النافذة فى مملكة بنى العباس ، أما المصادفة التى دفعت به إلى الوزارة فيرويها ابن خلكان كما يلى :

« كان أحمد بن عمار البصرى وزيرا للمعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال ، فقرأه الوزير عليه ، وكان فى الكتاب ذكر (الكلأ) فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فقال المعتصم خليفة أمىّ ، ووزيرٌ عامىّ ! ! وكان المعتصم ضعيف الثقافة ، ثم قال : أبصروا مَنْ بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن الزيات المذكور ،

فأدخلوه عليه ، فقال له : ما الكلأ؟ فقال : الكلأ العشب على الإطلاق ، فإن كان رطبا فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش ، وشرع فى تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه وبسط يده » .

وأصبح ابن الزيات وزيرا . .

وحدث التحول الكبير فى حياته بعد أن غادر دولة الأدب إلى دولة الحكم ، وأصبح سادنا للسلطة بعد ان كان خادما للكلمة ، وما لبث أن قبض على زمام الحكم بيد من حديد ، فاستبد بشئون الدولة ، وجعل شعاره فى تصريف الأمور تلك القولة الشائعة التى نسبت إليه فكانت وبالا عليه : « الرحمة خورٌ فى الطبيعة وضعف فى المنّة » ، وابتكر من ألوان العقاب والتعذيب ما يستفز المشاعر الإنسانية ، وذلك لإكراه خصومه على الاعتراف ، والتنكيل بأعدائه فى أبشع صور التنكيل ، وقد أفاض المؤرخون فى وصف آلة « التنور » التى صنعها لتعذيب الأشخاص الذين جاروا على أموال الدولة ليرغمهم على ردها يقول ابن خلكان :

« وكان ابن الزيات قد اتخذ تنورا من حديد ، وأطراف مساميره المحدودة إلى الداخل ، وهى قائمة مثل رؤوس المسلات ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة ، وكان إذا قال أحدهم : « ارحمنى أيها الوزير ! فيقول له : الرحمة خور فى الطبيعة » .

وإن الإنسان ليعجب كيف أباح هذا الشاعر الرقيق والأديب المثقف أن يستخدم عقله فى صنع آلة تعذيب وهو عمل السفاحين ومصاصى الدماء .

تبرير :

ومع بشاعة هذه الأعمال المنافية للأخلاق والفضيلة ، فإن ابن الزيات لقى

من الباحثين من يدافع عنه ، ويبرر تصرفاته من خلال الظروف السياسية التى أحاطت بالخلافة على عهد المعتصم ، وماكان يفتقر إليه الخليفة من قوة الشخصية وصفات الحزم والعلم والدهاء التى كان يتمتع بها أخوه وسلفه المأمون ، الأمر الذى أتاح لابن الزيات أن يوغل فى أسباب الطغيان دون أن يجد القوة التى تردعه ، ويضيف الباحث محمود الهجرسى فى كتابه عن ابن الزيات تبريرا آخر ، وهو أنه كان مضطرا إلى انتهاج سياسة العنف للحفاظ على الأموال العامة ، وتدبير شئون الحكم فى مجتمع يضم أخلاطا من شعوب الأرض وأنماطا مختلفة من العقائد والمبادىء ويضطرم بكثير من الثورات والانتفاضات والمبادىء الهدامة ، وكلها ظروف لا تصلح معها الرأفة والملاينة أو التهاون فى محاسبة المصادرين ، ولو فعل ذلك لاتهم بالتفريط فى حق الدولة ، ولشاعت الفوضى فى الولايات والأمصار ، واستبد كل حاكم بولايته يتصرف فيها على هواه ويبدد من خراجها ما يشتهى . .

وهكذا . . نجد دائما فى مبدأ الحفاظ على قوة الدولة التبرير لأعمال البطش والقهر والتعذيب التى ارتكبت ضد الأفراد .

خريف :

من كان يتصور أن يخبو هذا النجم الذى حلق فى سماء بغداد على مدار عهود ثلاثة من خلفائها (المعتصم والواثق والمتوكل) ومن كان يظن أن يلقى ، وهو فى خريف العمر مصيره البشع وبنفس الأداة التى ابتكرها واستخدمها فى التعذيب . . وأن تتصاعد من صدره الممزق صيحات الاسترحام ، فلا يجد من يأبه له . . وإنما يسمع نفس العبارة التى كان يقولها لخصومه وهم يتمزقون ألما : « الرحمة خور فى الطبيعة » .

تعالوا نقترب من هذا المشهد الأليم ، ونرى ستار الختام وهى تسدل على

حياة رجل ضل الطريق إلى عالم الأدب والشعر والكلمة الشريفة ، فانزلق إلى هاوية البطش والطغيان فلا بكت عليه الأرض . . ولا عفت عنه السماء .

يصف الطبرى نهاية محمد بن عبد الملك الزيات ضمن حوادث سنة ٢٣٣ هـ وهو العام الذى تولى فيه (المتوكل) الخلافة فأبقى ابن الزيات فى منصب الوزارة أربعين يوما . . وبعدها وقعت الفاجعة :

« ثم أمهله أربعين يوما فى الوزارة ، وبعد ذلك أمر إيتاخ (التركى) بأخذه وعذابه ، فبعث إليه إيتاخ ، فظن أنه دعى به ، فركب مبادرا يظن أن الخليفة دعا به ، فلما حاذى منزل إيتاخ قيل له : اعدل إلى منزل أبى منصور . فعدل وأوجس فى نفسه خيفة ، ثم أدخل حجرة وأخذ منه سيفه ومنطقته وقلنسوته ودراعته ، وأرسل إيتاخ ينهب داره وأخذ مافيها من متاع ودواب وجوار وغلمان ، ووجه المتوكل إلى بغداد من قبض ما هنالك من أمواله وخدمه ، وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه ، وضياع أهل بيته حيث كانت ، ولم يزل ابن الزيات فى حبسه مطلقا ، ثم أمر بتقييده فقيد ، وامتنع من الطعام ، وكان لا يذوق شيئا ، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكير، فمكث أياما ثم سوهر ومنع من النوم ، يساهر وينخس بمسلة ، ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد فأدخل فيه وعذب به أياما ، ذكر الدندانى أن الموكل بعذابه قال :

« كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يديه إلى السماء جميعا حتى يدق موضع كتفيه ، ثم يدخل التنور فيجلس ، والتنور فيه مسامير حديد ، وفى وسطه خشبة معترضة ، يجلس عليها المعذب إذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة ، فإذا سمع صوت الباب يفتح قام قائما كما كان ثم شدوا عليه ، فقال المعذب له : خاتلته يوما وأريته أنى أقفلت الباب ، ولم أقفله ، ثم مكثت قليلا ، ثم دفعت الباب غفلة فإذا هو قاعد فى التنور على الخشبة ،

فقلـت : أراك تعمل هـذا العمـل ، فكنت إذا خـرجـت بعـد ذلك شـددت خناقـه ، فكان لا يقدر على القعود واستللت الخشبة حتى كانـت تكون بين رجليه ، فما مكث بعد ذلك إلا أياما حتى مات .

النهايـة :

واختلف فى الذى قتل به ، فقيل : بطح فضرب على بطنه خمسين مقرعة ، ثـم قلب فضرب على ظهـره مثلهـا ، فمات وهـو يُضرب ، وهـم لا يعلمـون ، فأصبـح ميتا قـد التوت عنقه بغير ضرب ، وكـان يُسمع قبـل موتـه بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه : يا محمد لم تقنعك النعمة والدواب الفره ، والدار النظيفة ، والكسـوة الفاخـرة ، وأنـت فى عـافية حتـى طلبـت الـوزارة ، ذق ماعملـت بنفسك ! فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسـه فكان لايـزيد على التشهـد وذكـر الله ، فلما مات دُفعـت جثته إلى ابنيـه سليمان وعبدالله وكان محبوسين ، وقد طُرحت الجثة على باب من خشـب ، فى قميصه الذى حُبس فيه وقد اتسخ ، فغسلاه على الباب ودفناه ، وحفرا له فلم يعمقا ، فذكر أن الكلاب نبشته وأكلت لحمه .

انتهت رواية الطبرى . أما ابن خلكـان فيقول : « إن المتوكل لما قبض على ابن الـزيات أمـر بإدخـاله التنور ، وقيده بخمسـة عشر رطلا مـن الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقيل له : الرحمة خور فى الطبيعة كما كان يقول للناس » .

وبعد . . أرأيت أننى كنت على حق عندما قلت لك فى بداية هذا الحديث إننى لا أتمنى لنفسى أن تكون إلا حيث هى الآن . . وحتى نهاية العمر .

نكــبة الأفشــين

هذه صفحة من التاريخ السيـاسي . . لا يهم إن كانت مشرقة أو معتمة ، فليس الهدف أن تثير فى نفس القـارىء الإعجـاب أو النفـور . . الرضـا أو السخـط . . ولكن المطلـوب أن تثير فى نفسه القلـق والخوف حتى يخرج مـن شرنقة السلبية إلى آفاق الوعى ، فيتفكـر ويتدبر . . ويعرف كيف تجرى الأمور فى الأعالى . . نعم . . نريد من سكـان السفوح أن يكونوا على بينة بما حدث . ما أقل أن نعتبر . . إننا سرعان ما ننسى ـ ويجرفنـا تيار الحياة بعنفوانه وشواغله وطموحـاته . . فنَنْكـر وتَنْتشى . . ولا نتذكـر التجارب المريرة التى عانـاها الأسـلاف إلا حين نتعرض لنفس المحن التى تعرضوا لها . . فنفجـع . . ونسترجع شريط الذكـريات ونردد فى يـأس أن التاريخ يعيـد نفسه وهـو قول مغلوط نتعـزى به عن غفلتنـا . . لأن التاريـخ لا يعيد نفسه أبـدا . . وعجلة الزمـن لا تدور إلى الوراء ، وإنما تمضـى إلى الأمام فى تقدم مستمـر . . ولو دار التاريخ حول نفسه لتوقفت آلـة الزمن ، فلا يكون هناك ارتقاء إلى أعلى . . أو تقدم إلى الأمـام . . وإنما تكون هنـاك حركـة دائرية كحجـر الرحـى تنتهى إلى حيث بدأت ـ إنما التاريخ يعيد المشكلات القـديمة فتتشابه أمام عيوننا ويخيل إلينا أنها صورة كربونية لما وقع فى الماضى . .

وأنها تكرار لما قرأناه فى الكتب ، فيغلب علينـا اليأس ونقول فى بلاهة إنه لا فائدة من التقدم الإنسـانى وإن التاريخ يعيد نفسه ، ولـو أنصفنا مع الحقيقة التاريخيـة لوجهنا اللـوم إلى أنفسنا لأننـا سمحنا للمحن والتجـارب المريرة أن

تتكرر ، ولم تتدخل لتغيير مسارها بمقتضى التجربة التى مارسناها والخبرة التى اكتسبناها من قراءة التاريخ . . ولكن . . أين هو الإنسان الذى يعتبر من نحن غيره . . ؟

إننا نقرأ فى الكتب المقدسة عن النهايات المأساوية للطغاة والجبابرة الذين أذلوا قومهم وظنوا أنهم ظل الله على الأرض . . ومع ذلك فلا تزال الأرض تنبت فى كل يوم طغاة وجبابرة ومستبدين . . وثبت بالتقصى أن أعتى الحكام هم أكثر الناس قراءة للتاريخ . . أى أنهم لا يعتبرون ولا يتعظون . . والقرآن الكريم لم يسرد لنا قصص هؤلاء العتاة بقصد التسلية ورواية الحواديت للأطفال قبل النوم ، إنما يهدف إلى إيقاظ الأمم الغافلة من سباتها حتى تعرف حقوقها وتستخلصها من براثن الطغاة كى يعيش الناس أحرارا . .

فالتاريخ له هدف ، وله رسالة شريفة هى بث العبرة فى نفوس الناس فينظرون إلى واقعهم نظرة واعية ، لأن الإنسان لن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم ماضيه ، ومعرفة الماضى تكسبه خبرة السنين الطويلة ، والتأمل فى الماضى يبعد بالإنسان عن ذاته ، فيرى ما لايراه فى نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه ، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه ، وأقدر على حسن التصرف فى الحاضر والمستقبل . . إننا لن نستطيع أن نفهم الأحداث التى تجرى حولنا إلا إذا بحثنا عن مسبباتها فى أغوار الماضى . . فالحاضر هو ابن الماضى . . والمستقبل نتاج طبيعى للماضى والحاضر . . فإذا توفرت لنا الرؤية التاريخية الناقدة الذكية استطعنا أن نستخلص القوانين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تنطوى عليها الحادثات الظاهرة ــ حتى ليذهب بعض المفكرين إلى اعتبار التاريخ كله « معاصرا » . . فلا خطوط فاصلة بين الماضى والحاضر والمستقبل . . لأن الحوادث تجرى فى مسارها بلا توقف كما تجرى المياه فى النهر من المنبع إلى المصب . . وكلما تعمقنا فى السباحة فسوف نكتسب

خبرة ودراية وقدرة على الفهم والاستنباط . . وسوف نتوصل إلى الحقائق الخفية التي تحرك الحوادث الجارية . . وسوف تتوفر لنا القدرة على الربط بين المقدمات والنتائج . . وسوف نحوز ملكة الربط بين العلة والمعلول . . وهى نقطة البدء فى التفكير العلمى السليم .

أشـــباه :

والقصة التي سأرويها لك فى هذا الحديث ليست فريدة فى نوعها . . فلها أشباه ونظائر فى كافة مراحل التاريخ . . وربما ـ بعد أن تفرغ من قراءتها ـ وجدت لها شبيها فى الحوادث القريبة التى عاصرتهاورأيتها . . وربما تقع بحذافيرها فى المستقبل المنظور . . وكل هذا يدعو إلى الأسى والحزن لأن بعض الناس لا يستوعبون العبرة مما وقع لغيرهم فيقعون فى نفس الحفرة التى وقع فيها مَنْ سبقهم على الدرب . . وكل هذا يرجع إلى الغرور الإنسانى الذى يصور لصاحبه أنه أقدر على الإفلات من المصير الذى وقع لغيره . . وينسى أن الحياة تجرى وفق سنن وقوانين لا تعرف المجاملة ولا المحاباة ولا الاستثناء . . فالسلطة المطلقة مَفْسَدة مطلقة . . هذه حقيقة مطلقة دلت عليها حوادث التاريخ فى كل العصور وفى كل الأمم . . ومع ذلك فما أكثر الناس الذين يتكالبون على أبواب السلطة للتقرب من الطغاة والتزلف إليهم وتسويغ جرائمهم . . وينسون أن عجلة المقصلة تدور وسوف تقطع رقابهم . . وأن سيف الجلاد قريب ويتحرك بلا تفكير ولا روية . . إنهم يرون رؤوس غيرهم تطير فى غمضة عين وبمجرد إشارة من السلطان . . بلا تحقيق ولا سؤال . . ومع ذلك يزدادون تقربا وزلفى ظنا بأنهم بمنأى عن المصير المؤلم . . ولا يفيقون من سكرتهم إلا على سكين الجلاد تحز رقابهم فيتحدثون عن العدل والحق والقسطاس « !! » وهى أمور ظلت غائبة عن

ضمائرهم حين كانوا فى معية الطاغية ـ ولم يتذكروها إلا فى ساعة الكرب العظيم . . وكثيرون من القادة والوزراء والشعراء والأدباء فقدوا حياتهم بفعل الدسائس التى تجرى فى بلاط الحكام . . ومع ذلك . . فما أكثر الواقفين على أبواب البلاط ينتظرون إشارة القرب من الحاكم لكى يغترفوا من خيراته غير عابئين لشروره . .

قـــــادة :

وبطل القصة قائد من كبار القادة العسكريين الذين اعتمدت عليهم الدولة العباسية فى توطيد أركانها ومحاربة أعدائها ، وقدم لها من الخدمات الجليلة ما رفعه إلى مصاف الأمراء المعدودين ، وكان شأنه فى الدولة العباسية كشأن الحجاج ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم الباهلى فى الدولة الأموية . . وكشأن أبى مسلم الخراسانى وعبد الله بن على وعبد الله بن طاهر فى الصدر الأول من الدولة العباسية . . فكل هؤلاء القادة المحنكين بذلوا الجهد الجهيد فى خدمة الدولة ، وقادوا الجيوش لإخماد الفتن والثورات التى أشعلها خصوم الدولة ، وحققوا لسادتهم انتصارات باهرة . . ومع ذلك كان جزاؤهم ـ باستثناء الحجاج ـ الغدر والاغتيال والقتل على أيدى سادتهم . . ودفعوا حياتهم ثمنا للصراعات التى كانت تجرى بين أمراء الأسر الحاكمة حول الحكم وولاية العهد . . فمنذ ابتدع معاوية بن أبى سفيان سنة ولاية العهد لابنه يزيد فى حياته ، سار الخلفاء على نهجه مما فتح بابا للفتن والدسائس من جانب الأمراء الذين كانوا يرون أنهم أجدر وأحق بالحكم من غيرهم . . وكان بعض الخلفاء يستشير بعض قادته وخاصته فى اختيار ولى العهد . . فكان يشير عليه بما يمليه عليه ضميره أو بما تمليه عليه مصالحه الخاصة . . أو بما يمليه عليه غباؤه وجهله بالحسابات الدقيقة فى الترشيح . . فيأتى

الخليفة الجديد على غير ما أشار فيبدأ بالانتقام من كل الذين رشحوا غيره .

فالخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك استشار الحجاج فى ولاية العهد فأشار عليه باختيار ابنه عبد العزيز دون أخيه سليمان بن عبد الملك ، ولكن «الوليد» اختار أخاه سليمان دون ابنه ، فلما تولى سليمان شرع فى الانتقام من كل الذين لم يرشحوه ، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل تولى سليمان فأفلت من التنكيل ، ولم يجد الخليفة الجديد من ينتقم منه سوى ابن أخت الحجاج وزوج ابنته البطل العظيم محمد بن القاسم الذى كان يمضى فى فتح بلاد السند والهند ، ويقاتل قتالا مستعرا من أجل إدخال الإسلام إلى هذه البلاد الجبلية الوعرة . . ولم يتورع الخليفة عن عزل ابن القاسم وتكليف واليه فى العراق بأن يسوق ابن القاسم مكبلا فى الحديد ويقطع رأسه . ولك أن تتصور هذا المشهد المأساوى . . مشهد بطل عسكرى يُخطف خطفا من ميدان الحرب ثم تقطع رأسه تشفيا لرغبة الانتقام عند حاكم ظالم وقد حدثتك عن هذه النكبة حديثا مستفيضا فى فصل سابق .

وفعل سليمان بن عبد الملك نفس الصنيع مع قائد آخر لا يقل عن ابن القاسم شجاعة وبسالة ، هو قتيبة بن مسلم الباهلى الذى كان فى ذلك الوقت يقود جيوش الإسلام لفتح بلاد التركستان ـ فيما وراء النهر ـ وهى الآن بعض الجمهوريات الإسلامية التى تحررت من النفوذ السوفيتى ، بعد أن فرغ من فتح بلاد الأفغان ، وكان قتيبة قد وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الحجاج حين أشار على الخليفة الوليد بن عبد الملك بعدم اختيار سليمان فوقعت عليه لعنة الانتقام من الخليفة الجديد ، فأمر بعزله ، وسلط عليه بعض المرتزقة فقتلوه غيلة وهو فى حومة الوغى .

فلما جاءت الدولة العباسية وقع لها ما وقع للدولة الأموية من صراعات

حول العرش . وكان المنصور قد وعد عمه عبد الله بن على بولاية العهد إذا هو قضى على جيوش الأمويين التى تمركزت فى شمال العراق بعد الانقلاب العباسى . وتحمس عبد الله بن على للوعد ، فطارد فلول مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حتى شتت شملهم وقضى عليهم قضاء مبرما ، فلما حانت ساعة الوفاء بالوعد نكص المنصور على عقبيه وتنكر لوعده ، فغضب عبد الله ابن على وانقلب على المنصور حتى خُذل فأوى إلى إخوته بعيدا عن عيون المنصور ، ولكن المنصور لم يرقأ له جفن حتى قبض عليه واستخدم كل الحيل ، ثم دبر لعمه مكيدة انتهت بقتله خنقا دون مراعاة لتاريخه المجيد فى خدمة الدولة .

الأفشين :

وبطل قصتنا لا يصل فى شهرته إلى مستوى القادة الذين ذكرتهم لك ، وإن لاقى نفس مصيرهم ، واسمه حيدر بن كاوس ؛ أما لقبه فهو «الأفشين» . وهو لقب كان يطلق على ملوك « أشروسنة » وهى من بلاد الترك التى تحررت الآن من النفوذ السوفييتى . وكان والد حيدر ملكا على هذه البلاد ولكن وقع خلاف بينه وبين أبيه ، فخرج من بلاده غاضبا ورحل إلى بغداد واستطاع أن يصل إلى الخليفة المأمون وأن يزين له غزو بلاده انتقاما من أبيه ، فوجه إليها المأمون جيشا أزاح الأب عن الحكم وولى مكانه ابنه حيدر وحمل لقبه «الأفشين» . ومن يومها صار الأفشين من الأمراء المقربين للمأمون وأحد كبار القادة الذين عهدت إليهم الدولة بقيادة جيوشها فى محاربة الروم أو فى إخماد الفتن المحلية . ومات المأمون سنة ٢١٨ هـ وخلفه المعتصم فزاد اعتماده على الأفشين ، حتى صار أحد القواد الثلاثة الذين كانوا على رأس الجيش الإسلامى الذى ذهب لمقاتلة الروم فى معركة « عمورية » وكسب

للإسلام وللدولة العباسية معركة من أكبر المعارك التاريخية . وأبلى فيها بلاء لفت نظر أبى تمام فمدحه بهذه الأبيات :

قد لبس الأفشين قسطلة الوغى — محشا بنصل السيف غير مواكل
وجرَّدَ من آرائه حين أضرمت — به الحربُ حدًّا مثل حدِّ المناصل
وسارتْ به بين القنابل والقنا — عزائمُ كانت كالقنا والقنابل
تراه إلى الهيجاء أول راكب — وتحت صبير الموت أولَ نازل

فلما دارت الأيام دورتها ، ولقى الأفشين مصير من سبقوه ، وأمر المعتصم بصلبه وحرقه بتهمة الكفر والإلحاد ، عاد أبو تمام فذمه فى قصيدة طويلة منها :

قد كان بوّأهُ الخليفة جانبا — من قلبه حَرَمًا على الأقدار
فاذا ابن كافرة يُسرُّ بكفره — وَجْداً كوجْدِ فرزدقٍ بنُوار

وهكذا يميل ميزان الشعر مع اتجاه الدولة ، إن رضيت عن شخص فهو الملاك الرحيم ، وإن غضبت عليه فهو الشيطان الرجيم . ولكن التبريزى يقول : لم يكن الأفشين كافرا ولا منافقا . . وإنما كان رجلا من الفرس اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته ، واعتمد عليه فى مهام أموره ، حتى وَكل إليه مقاتلة بابك الخرمى فمضى إليه فى ألوف وأسره . غير أن الحساد أفسدوا ما بينهما ، فذكروا للمعتصم : أنه منطو على خلافك ، وقالوا للأفشين : إن المعتصم قد عزم على القبض عليك ، فانقبض عنه حذرا من القبض عليه ، فتحقق المعتصم ــ بانقباضه ـ ماكان أخبر به عنه ، فأخذه وأحرقه وصلبه . . الخ .

حظـــوة :

ولعلك فهمت من عبارة « التبريزى » أن الأفشين كـان مقربا مـن الخليفة المعتصم . وكان موضـع ثقته حتى إنه عهد إليه بإخماد ثورة بَـابَك الخُرَّمى التى أزعجت الدولة العباسية منذ عصر الرشيد وقد فشلت كل الجيوش فى القضاء عليها ، ونجح الأفشين فيما اخفق فيه قادة سابقون مما جعله موضع حظوة عند المعتصم ، ولكـن الحساد أوقعوا بينهما ، وأوغـروا صدر كل منهما مـن الآخر ، فحل النفور بينهما محل الصفاء ، وتفهـم منها أيضا ان الأفشين إنما راح ضحية لمؤمراة حيكت داخل البلاط العباسى ، وليس فيها ما ينم على أن الأفشين كان زنديقا كافرا كما وصفه أبو تمام ، وإن كانت جميع المصادر التاريخية أجمعت على أن السبب فى محنة الأفشين أنه كان يضمر الزندقة والكفر ويظهر الإسلام ، ويسعى إلى إزالة حكـم العرب وإعادة دولة الفرس إلى سابق مجدها ، وإحياء الأديان الفارسية القـديمة : الزرادشتيه والمانوية والمزدكيـة ، وهى الأديان التى كانت سائدة فى بلاد الفرس قبل أن يـدخلها الإسلام على عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب . وفى ذلك يقول كاتب معاصر :

هـذا الأفشين صورة من صور كثيرة تعـددت زمـن سيطـرة العجـم على أصحاب السلطان العبـاسيين ، وكانوا كلما انقضت منهم دولة قـامت دولة ، وكـانوا جميعـا لا يهتمـون بالمسائل التـى تخص العـرب : لغتهم أو دينهـم أو جنسهـم أو قـوميتهم إلا بالقـدر الذى يجعلونه ذرا للـرماد فى العيون ، ولـذلك تفشت الزندقـة ، وقويت الشعوبية ، وضعفت النعرة العـربية ، وحاول القوم أن يعيدوا دولتهم كما كانت قبل أن يهدمها الإسلام .

ومعنى ذلـك أن محنة الأفشين إنما وقعت فى إطـار « هوجـة » فارسية عـامة هدفهـا إعادة عقـارب الساعة إلى الـوراء ، والانتقام من العـرب الذيـن فتحوا بلادهـم وقضوا على أديـانهم ، واستأصـلوا ملوكهـم الـذين كـانوا يـدينون لهم بالألوهية ، وينظرون إليهم على أنهم أشخـاص مقدسون انحدروا من أصلاب

الآلهة ، وحقد الفرس على الدولة الأموية لأنها كانت عربية صرفة وتنحاز إلى العرب ، وتضطهد الموالى الفرس ، ولذلك اشتركوا فى التنظيمات السرية التى أقامها دعاة العباسيين فى خراسان حتى تمكنوا من تقويض الدولة الأموية وإقامة ملك العباسيين على أمل أن تتحقق لهم طموحاتهم فى العهد الجديد ، ولكنهم اكتشفوا أن العباسيين لا يقلون « عروبة » عن الأمويين ، وأن انتقال الخلافة من هؤلاء إلى أولئك لم يحقق أحلامهم فى قيام دولة فارسية فى مظهرها وحقيقتها وفى سلطتها ولغتها ودينها .

ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام فى سلطانه ، فأخذوا يعملون سرا على إحياء أديانهم القديمة التى لم ينسوها لما اعتنقوا الإسلام ، ولعبت فى رؤوسهم الرغبة الدفينة فى العودة إلى معتقداتهم ، وشجعتهم سماحة الخلفاء العباسيين على إظهار هذه المعتقدات على استحياء ، حتى إذا كان عهد المأمون أسفرت هذه الحركات عن وجهها ، وتفجرت فى شكل انتفاضات وثورات أعلنت الخروج على الدولة ودين الدولة ، وكان أكبر هذه الحركات وأشدها خطرا هى الحركة المعروفة باسم « الخُرَّمية » التى تنتسب إلى زعيمها « بَابَك الخُرَّمى » . . الذى ظهر فى جبال أذربيجان فى السنة الأولى من القرن الهجرى الثالث ، وانقاد له جمع كبير من الزنادقة ، وتصدى لكل الجيوش العباسية التى ذهبت لقتاله ، واستطاع أن يسيطر على مناطق شاسعة فى بلاد ما وراء النهر ، ودانت له الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق ، وعسكر بجيوشه فى همذان ، ومن هناك قطعوا الطريق وأخافوا السبيل وقتلوا الحجيج وعاثوا فى الأرض فسادا . . واستمرت ثورة بابك الخرمى عشرين عاما دوخ فيها جيوش المأمون والمعتصم ودمرها وقتل بعض قادتها .

وشاء القدر أن تأتى نهاية هذا الأفاق الملحد على يد الأفشين حيث بعثه المعتصم سنة ٢٢٠ على رأس جيش لجب ـــ فلم يزل ينازله حتى قضى على ثورته وتمكن من أسره وساقه إلى المعتصم بمدينة سامراء فقتله وصلبه ، وشاء

القدر أن يحاكم الأفشين بنفس التهمة التى قاتلها وتصدى لها حتى قضى عليها . . والتهمة هى إخفاء الزندقة على مذهب « الخرّمية » . . فما هى هذه الخرمية ؟

وما هو تاريخ نشأتها ؟ وما معتقداتها ؟ وما حقيقة ارتباط الأفشين بها . . ؟

معتقدات فارسية :

الخرمية أحد فروع الديانة المجوسية للفرس قبل الإسلام ، ومع ذلك ظلت قائمة بعد انتصار الإسلام ، ذلك أن الدولة العباسية اعتمدت اعتمادا تاما على العناصر الفارسية بغض النظر عن معتقداتهم ، وقامت بين الطرفين صفقة نفعية . . فالدولة العباسية أرادت أن تستخدم الفرس فى تقويض الدولة الأموية وتستغل حقدهم على العرب ، والجماعات الفارسية اندمجت فى التنظيمات السرية التى أقامها العباسيون فى خراسان على أمل أن تكون لهم السيادة فى الدولة بعد نجاح الانقلاب ، وأن تتحقق أحلامهم فى استعادة مجدهم الذى قوضه الإسلام . . كانت هناك مصلحة مشتركة بين طرفين كل منهما يريد أن يستخدم الآخر . . ولم تكن الدولة العباسية غافلة عن نيات الفرس . فكانت تتربص بهم وتكسر شوكتهم كل حين ، فلما انقضى عصر الفتوة العباسية وجاء عصر الخلفاء الضعفاء كشفت الحركات الفارسية عن وجهها ، فاندلعت الفتن والثورات والحركات الانفصالية فى الأصقاع النائية . وتحولت هذه البقاع إلى أوكار لجذب العناصر التى شدها الحنين إلى الماضى فشهرت السلاح فى وجه الدولة .

فى ذلك يقول سيد أمير على فى كتابه (روح الإسلام) كانت الولايات الشرقية من الإمبراطورية الفارسية فى هذا الوقت موطنا لقوميات مختلفة

ومذاهب دينية شتى، ففى تلك الأصقاع لم يتجمع اتباع زرداشت الهاربون أمام الموجة الإسلامية فحسب ، بل تجمع ممثلو المذاهب الدينية الهندية المختلفة أيضا ، وقد ظلت هذه الآراء الغريبة والهرطقات العجيبة التى زعزعت أركان « الهيكل والقصر معا » . فى أيام أكاسرة الساسانيين المتأخرين حتى وجد كسرى أنوشروان نفسه مضطرا لأن يضع لها حدا بالسيف والنار ، غير أنها ظلت حية بالرغم من جميع هذه الاضطهادات . وها هى آخر الأمر تتخذ مظاهر وأشكالا شتى لتعود إلى الظهور من جديد فى الإسلام ، فأطلت برأسها الراوندية والمازدكية والبابكية الخرمية ، كان ذلك إعادة للقضية القديمة فى التاريخ ، وكان على الإسلام أن يمر بعصور من الفوضى والمحن كما مرت بها المسيحية من قبل (من بداية القرن الثانى حتى نهاية القرن التاسع الميلادى) ظل هناك صراع لا ينقطع فى المسيحية بينها وبين المذاهب التى سبقتها من تلك الأفكار التى كانت تعود إلى الظهور بين الفينة والفينة بأشكال مختلفة ، وعلى يد شخصيات مختلفة أيضا .

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الطوائف تعتنق الإسلام ، فإنها حافظت على مفاهيمها البدائية الأولى ، كما ولّدت بدورها مذاهب وأفكارا جديدة فى الإسلام ، فمن الحقائق الثابتة : أن الخصائص القومية لأفراد شعب ما ، والظروف المناخية التى يعيشون فيها ، والطبيعة الجغرافية للبلاد التى يعيشون فيها ، وتأثير المذاهب السابقة عليهم ، كل هذا يصبغ معتقداتهم ومبادئهم .

ويصدق هذا على المسيحية كما يصدق على الإسلام ، فمن إيران خرجت الأديان الثلاثة التى هى نتاج الظروف الطبيعية والبشرية لبلاد الفرس والجنس الآرى بصفة عامة .

وجاء ظهور زرادشت ـ أول أنبياء الفرس ـ ليؤكد هذه الأفكار ويصوغها فى قوالب دينية ، فقال إن للعالم قانونا يسير عليه ، وإن له ظواهر طبيعية ثابتة

وإن هناك نزاعا وتصادما بين النور والظلمة ، والخصب والجدب ، وانتهى إلى أن للعالم أصلين أو إلهين هما : النور إله الخير ، والظلمة إله الشر ، وبقيت هذه الثنائية ، أو الثنوية ، قاعدة ثابتة فى كافة الديانات الفارسية التى تلت الزرادشتية ، وأهمها الديانة (المانوية) التى ابتدعها (مانى) فى بدايات القرن الميلادى الثالث ، فجاءت تعاليمه مزيجا من النصرانية والزرادشتية ، وفى حين كان زرادشت يدعو إلى العمل والجد والكفاح وتعمير الأرض ، جنح (مانى) إلى الزهد واستعجال الفناء لما رآه فى العالم من غلبة الشر ، فحرم النكاح ودعا إلى الرهبنة والفرار من العالم ، ووجدت الدولة الساسانية فى هذه الأفكار الهروبية خطرا على نزعتها الحربية التقليدية فحكمت على (مانى) بالإعدام ، ولكن المانوية ذاعت فى العالم المسيحى ووصلت إلى أوروبا وتغلغلت فى الحركة الهرطقية التى قاومتها الكنيسة الرومانية بكل عنف عن طريق محاكم التفتيش ، كذلك تسربت المانوية إلى الإسلام وأصبح لها دعاة يروجون لها تحت ستار الإسلام .

وفى أواخر القرن الخامس الميلادى ظهر فى بلاد فارس (مَزْدَك) ومعه دين جديد ذو نزعة اشتراكية ، فأباح الملكية العامة فى النساء والأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ .

ويرى العلامة أحمد أمين أن شيئا من أفكار مزدك قد تسرب إلى الإسلام فى الناحية المالية فقط ، وظهر ذلك واضحا فيما كان يدعو إليه الصحابى الجليل أبوذر الغفارى حين قال : « لا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا » . ويرى أحمد أمين فى ذلك رأيا قريبا من آراء مزدك ، ولا يستبعد أن يكون أبوذر قد تلقى هذه الأفكار عن ابن السوداء ـ عبد الله بن سبأ ـ الذى يقول الطبرى إنه لقى أبا ذر فأوعز إليه بذلك . ونحن نعلم أن ابن السوداء كان يهوديا من صنعاء أظهر الإسلام فى عهد عثمان ، وطاف بالأمصار الإسلامية ينشر آراءه الفاسدة ليفسد

على المسلمين دينهم . ومن المحتمل أن يكون ابن سبأ تلقى هذه الفكرة الاشتراكية عن مزدكية العراق أو اليمن ، فاعتنقها أبو ذر عن حسن نية وصبغها بصبغة الزهد التى كانت تجنح إليها نفسه ، فقد كان رضوان الله عليه من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم فى الدنيا .

ولم يقتصر تأثير الديانات الفارسية القديمة فى المجتمع الإسلامى على المعتقدات الدينية فحسب ، وإنما كان له أكبر الأثر فى الناحية السياسية وعلاقة الشعوب بحكامها ، ذلك أن الفرس كان ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح من عنده ، فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة ، ويلاحظ أحمد أمين شبها فى هذه الأفكار وما عُرف فى أوروبا بنظرية « الحق الإلهى » وسادت فيها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وينقل عن الأستاذ برون قوله :

لم تُعتنق نظرية الحق الإلهى بقوة كما اعتنقت فى فارس فى عهد الملوك الساسانيين . وقد كان الأكاسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم أن يلبسوا تاج الملك بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى .

وقد ورثت دولة الإسلام كل هذه المعتقدات الدينية والسياسية ، التى بقيت مستكنة فى نفوس أصحابها رغم اعتناقهم الإسلام ، فكثير منهم أسلموا ولم يتجردوا من كل عقائدهم القديمة ، وبمرور الزمن صبغوا آراءهم القديمة بصبغة إسلامية ، فنظرة الشيعة الفرس فى على بن أبى طالب وأبنائه هى نظرة آبائهم الأولين فى الملوك الساسانيين ، وثنوية الفرس كانت منبعا يستقى منه «الرافضة» . أضف إلى ذلك أن تعاليم زرادشت ومانى ومزدك أخذت تطل برأسها بين المسلمين فى حركات شتى . وكان أخطرها حركة بابك الخرّمى التى ظلت تعمل فى الخفاء طوال قرنين من الزمان حتى إذا استشعرت ضعف

الخلافة وقوة النزعات العرقية والإقليمية بدأت تكشف عن وجهها القبيح ، وتشهر السلاح فى وجه الدولة العباسية لكى تعيد دولة الفرس بأديانها ومعتقداتها وتقاليدها وآدابها .

تطـــرف :

وليس صدفة أن هذه الحركة الإلحادية الانفصالية وجدت فرصتها للظهور فى العصر العباسى ، لأن العباسيين ـ أثناء تدبيرهم السرى لتقويض الدولة الأموية ـ فتحوا قلوبهم لأرباب الديانات الفارسية القديمة ، الذين كانوا يكنون للعرب والإسلام حقدا دفينا ، ولكن القائمين على أمر الدعوة العباسية فى مرحلة التنظيم السرى غضوا الطرف عن معتقدات هؤلاء المتطرفة المخالفة لروح الإسلام ، وتساهلوا فى أمرهم . وسمحوا لهم بالانضمام إلى التنظيمات السرية على أمل أن يساعدوهم فى دحر عدوهم المشترك ـ الأمويين ـ ولم يفطنوا إلى ما سوف تؤدى إليه هذه الشركة من تهديد للدولة العباسية نفسها ، ومن تربص لتقويض الإسلام نفسه .

والمعروف تاريخيا أن العباسيين اختاروا إقليم خراسان ــ عقر دار الفرس ــ ليكون حقلا لبث أفكارهم ، ومهدا لتكوين حلقات التنظيم السرى لبعده عن دمشق حاضرة الدولة الأموية ، ولما تنطوى عليه نفوسهم من بغض لملوك بنى أمية . وأشاع قادة الدعوة العباسية السرية أن أهل خراسان هم عماد الدولة وأن لهم صفات وخصائص لا توجد فى غيرهم ، ورفعوهم درجات فوق أهل الأمصار الأخرى ، وكان الدعاة يذيعون ذلك فى أهل خراسان ليستميلوهم ويحملوهم على الانضمام إلى الدعوة والتضحية فى سبيلها ليجنوا ثمارها بعد نجاحها ، وبذلك حركوا عواطفهم الذاتية ، وهيجوا مشاعرهم القومية ، وكان لقيام أبى مسلم الخراسانى على أمر الدعوة أكبر الأثر فى إذكاء نار

العصبية الفارسية وإحياء الأمل فى إعادة دولة العجم ، وكان الإمام إبراهيم - رأس التنظيم السرى العباسى - قد أوصاه بأن يجمع إليه العجم ويستكثر منهم ، ونصحه أن يستعين بهم ويعول عليهم دون العرب ، فأقبلوا عليه أفواجا ، والتف حوله المسلم منهم وغير المسلم ، وكان أتباع الديانة الخرَّمية من أوائل الذين انضموا إلى الدعوة العباسية ، وأوسع لهم أبو مسلم فتسربوا إلى تنظيماتها على مستوياتها المختلفة ، واندسوا فى حلقات قادتها ، وأثروا فى نقبائها تأثيرا شديدا حتى كادوا يحرفونهم عن خطة الدعوة ، ويضلونهم عن الإسلام ، وأوشكوا أن يفسدوا عقيدة بعضهم ويجروهم إلى ملتهم تحت إغراء الإباحية فى النساء والإقبال على المتعة واللذة . . وهى من أساسيات المعتقدات الخرَّمية . وقد أشار ابن الأثير فى (الكامل) إلى أن تعاليم بابك خليط من المزدكية والخرمية والمجوسية ، فقد كان يعتقد بالحلول والتناسخ ، وكان يجيز الإباحة فى النساء ، والمشاركة فى الحُرُم والأهل ، لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه .

وكان من دعاة العباسيين من يؤمن بتعاليم الخرمية ويبشر بها فى خراسان . كذلك احتضنت الدعوة العباسية (الراوندية) وهم من الغلاة المتطرفين وكانوا يعتنقون أفكارا غريبة عن الإسلام ورثوها عن الديانات الفارسية مثل الحلول وتناسخ الأرواح وتأليه الأئمة . وقد روى البلاذرى فى (أنساب الأشراف) أن قوما من أصحاب أبى مسلم الخراسانى كانوا يقولون بتناسخ الأرواح ، ويقولون : إن أمير المؤمنين يرزقنا ويسقينا فهو ربنا ، ولو شاء أن يسير الجبال لسارت ، ولو أمرنا أن نستدبر القبلة لاستدبرناها . .

ولا شك أن أبا مسلم الخراسانى ، وهو يقوم ببناء التنظيم العباسى السرى ، قد نجح فى استمالة أرباب الديانات الفارسية القديمة واستكثر منهم ، واستظل بهم ، وفى طليعتهم الخرمية والراوندية . . فهل كان أبو مسلم

يعتنق هـذه الأفكار سرا ، ويظهـر الإسـلام تقيـة ؟! هذا سـؤال صعـب . . والجواب عليه يحتاج إلى أسـانيد وأدلة ، لأننا نعرف أن هذا القـائد المغوار لقى مصرعه غيلـة فى مؤامـرة حاكهـا جبار الدولـة العباسيـة أبو جعفـر المنصور لما توجس خيفة من عظم قدر أبـى مسلم ، وتحسس منه الخطر ، واقتنع أنه أدى دوره فى بنـاء الـدولة وعليـه أن يمضـى إلى حيـث يمضى كـل حـى . . ولهذا يتوجب الاحتراز عنـد التشكيك فى عقيدة هذا الشاب العبقـرى . . ومع ذلك فهناك شـواهد تـاريخية تـؤكد أنه لم يكـن بعيدا عـن تلك الحركـات العنصرية الإلحادية التى ضربت أطنابها فى أركان الدولة .

فالدكتور حسين عطوان ـ وهو أستاذ أكـاديمى متخصـص فى تاريخ الدولة العباسية ـ يتتبع تاريخ أبى مسلم الخراسانـى منذ حياته الباكرة ويقول إنه كان من غلاة الشيعة قبل انضمامه إلى الدعوة العباسية ، ويـستند إلى الشهرستانـى فى (الملل والنحـل) الذى يقول : كـان أبو مسلم صاحـب الدولة على مـذهب الكيسانية ـ وهو أحد المذاهب الشيعية المبكرة ـ فى الأول ، أى قبل انضمامه إلى الدولة العباسية ، واقتبس من دعـاة الكيسانيـة العلوم التى اختصوا بها وأحس منهم أن هذه العلوم مستـودعة فيهم فكان يطلب المستقر فيـه . . ثم يقول إن أبامسلم استهوى الغلاة وغيرهم ممن ينتحلون الديانات الفارسية . . وقبلهم فى الدعوة .

فهل كان أبو مسلم الخراسانى يظهر الإسلام تقية ، ويضمـر الكفر والإلحاد ويسعى إلى إحياء ديانات أجداده القدامى ؟

لا يوجد دليل مـوثوق على صحة هذه الأقاويل ، ونحـن نعلم أن السبب الرئيسـى فى اغتيال أبى مسلـم هو حقد المنصور عليـه وتخوفه منه ، ولـو كان المنصور ـ وكان يعلم خبايا النفوس ـ التمس من أبى مسلم ردة عن الإسلام لما تورع عن استخدامهـا لتسويغ قتله . . ومع ذلك فـإن المصادر التاريخية تشير

إلى الجماعات الفارسية التى انتفضت عقب اغتيال زعيمها أبى مسلم ، وغالت فى تقديسه حتى وصل بها الأمر إلى تأليهه ، وظهرت جماعة الراوندية والخرمية والأبومسلمية لتطالب بدم أبى مسلم وتزعم أنه لم يمت . يقول البغدادى فى (الفرق بين الفرق) . . وزعموا أن الإمامة بعد السفاح صارت إلى أبى مسلم ، وأقروا بموته إلا فرقة منهم تدعى « أبو مسلمية » أفرطوا فى أبى مسلم غاية الإفراط وزعموا أنه صار إلها بحلول روح الإله فيه وأنه خير من جبريل وميكائيل وسائر الملائكة ، وأنه حى لم يمت ، وهم على انتظاره ، وإن الذى قتله المنصور كان شيطانا تصوّر للناس فى صورة أبى مسلم . وقال الشهرستانى : إن أبا مسلم كان على مذهب الرزامية فساقوا إليه الإمامة وادعوا حلول الله فيه ، ولهذا أيده الله على بنى أمية حتى قتلهم عن بكرة أبيهم . ونص المسعودى أن طائفة « الأبو مسلمية » كانت من الخرمية وجعلوا الإمامة من بعده لابنته فاطمة ويدعون « الفاطمية » .

ولو صحت هذه الروايات لكان معناها أن العباسيين فى طورهم الأول شجعوا العناصر الايرانية على الانضمام إليهم بغض النظر عن معتقداتهم ونياتهم وطموحهم فى العودة إلى الماضى ، فلما قويت شوكة الدولة تنبهت إلى الخطر الذى يحدق بها فكانت توجه إلى هذه الجماعات ضربات متتالية ، وكانت نكبة البرامكة إحدى هذه الحلقات . ولكن الحركات الفارسية لم تهدأ ، وكلما خمدت فتنة قامت أخرى .

مقاومة الدولة :

والخرمية هى أخطر وأكبر هذه الحركات لأنها نجحت فى استمالة قطاعات كبيرة من مجوس الفرس وشهرت السلاح فى وجه الدولة على امتداد عشرين عاما ، واستطاعت أن تهزم كافة الجيوش التى بعثت بها الدولة لإخمادها ، ولم

تتحقق هزيمة الخرمية إلا على يد هذا القائد (الأفشين) الذى اتهم بعد انتصاره بأنه كان أحد اتباع الخرمية ، وكان يؤمن بمبادئها ، وكان يضمر كراهة العرب والإسلام ويحلم بعودة المجوسية ، ويتبين فى أثناء محاكمته أنه كان يكاتب أحد زعماء المجوس واسمه مازيار أثناء الحرب بينها ، ويغريه بأن يتعاونا على هدف مشترك ، هو دحر العرب والإسلام وإقامة الدين الأبيض (الخرمية) وينعى على بابك الخرمى أنه لم يتعاون معه فلقى مصرعه ، وقال فى رسالة له تم ضبطها : « لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك ، فأما بابك الخرمى فإنه لحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى لحمقه إلا أن أوقعه ، فإن خالفت - أى خرجت على سلطة الدولة - لم يكن للقوم - أى للعرب - من يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة ، فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك ، والعربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه ، والمغاربة أكلة الرأس ، والأتراك إنما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيول عليهم جولة فتأتى على آخرهم ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام العجم » .

وكانت هذه الوثيقة المكتوبة بخط الأفشين من أقوى أدلة إدانته والحكم عليه بالموت حرقا . .

ويصف الطبرى بابك بأنه كان من أبطال زمانه وشجعانهم عاث فى البلاد وأفسد ، وأخاف الإسلام وأهله ، وغلب على أذربيجان وغيرها ، وأراد أن يقيم ملة المجوس فقهره الله وأخذله ، وكان لسقوط بابك رنة فرح فى أنحاء العالم الإسلامى . وقد قبض عليه الأفشين وعاد به مصفدا فى الأغلال إلى سامراء عاصمة المعتصم ، فلما اقترب من المدينة وضعه الأفشين على ظهر فيل إمعانا فى إذلاله ، وخرج الناس من كل صوب واصطفوا على جوانب الطرق لرؤية المتمرد الذى قاد حركة انفصالية إلحادية على امتداد عشرين عاما .

ويروى المؤرخ ابن الأثير فى (الكامل) تفاصيل إعدام بابك الخرمى فى قصر الخليفة ، وقد أبى المعتصم أن يلقى بابك مصرعه إلا بيد سيافه الخاص ، فأمره المعتصم أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط ، فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه ، وأنفذ رأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه فى سامراء ، وأمر بحمل أخيه عبد الله إلى إسحق بن إبراهيم محافظ بغداد ، وأمره أن يفعل به ما فعل بأخيه بابك ، فعمل به ذلك وضرب عنقه وصلبه فى الجانب الشرقى بين الجسرين ، أما الأفشين فقد كافأه المعتصم على شجاعته ونجاحه فى إخماد الحركة الخرمية ، وألبسه وشاحين بالجوهر ومنحه عشرين ألف ألف درهم ، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه ويشيدون بشجاعته . فكان مما قاله أبو تمام :

بذ الجلاد البذ فهو دفين	ما إن بها إلا الوحوش قطين
لم يقر هذا السيف هذا الصبر فى	هيجاء إلا عز هذا الدين
قد كان عزرة سؤدد فافتضها	بالسيف فَحْلُ المشرق الأفشين

مصرع الفحل :

إذا كان أبو تمام قد وصف الأفشين بأنه (فحل المشرق) فإن الأيام لم تمض طويلا حتى لقى فحل المشرق مصرعه بنفس الطريقة التى قتل بها خصمه بابك الخرمى . فكيف حدث هذا التحول الخطير ؟ وكيف انقلب البطل الظافر إلى عدو منبوذ يستحق عقوبة الموت ؟ يعزو ابن الأثير هذا التطور إلى الصراعات التى تجرى بين القادة العسكريين ، وطمعهم فى الاستئثار بحكم الولايات الهامة فى الدولة العباسية ، وكان مازيار بن قارن واليا على طبرستان ، ولكنه أظهر الخلاف والتمرد على الخلافة ، فلما ظفر الأفشين ببابك وعظم قدره عند المعتصم طمع فى ولاية خراسان ، فكتب إلى مازيار يستميله ويظهر له

المودة ، ويحرضه على المضى فى العصيان والتمرد ، فكتب المعتصم إلى عبد الله ابن طاهر يأمره بمحاربة مازيار ، وفى الوقت نفسه كتب الأفشين إلى مازيار يأمره بمحاربة عبد الله بن طاهر ، ويبدو أن هذه المكاتبات ـ بين الأفشين ومازيار ـ وقعت فى يدى عبد الله بن طاهر فبعث بها إلى المعتصم ليرى فى أمر الأفشين ما يراه . . واستطاع عبدالله بن طاهر أن يظفر بمازيار وسيق إلى سامراء ، وأمر المعتصم أن يجمع بينه وبين الأفشين ، فاقر مازيار أن الأفشين كان يكاتبه ويحسن له الخلاف والمعصية ، فأمر الخليفة بضرب مازيار أربعمائة وخمسين سوطا ، وطلب ماء للشرب فسقى فمات من ساعته ، أما الأفشين فقد أمر المعتصم بالقبض عليه ووضعه فى الحبس لحين البت فى أمره .

ونفهم من هذه الرواية لابن الأثير أن سبب نكبة الأفشين هو الصراع بين قادة الجند ، وتدبير كل منهم للآخر للإيقاع به . ولكن ابن الأثير لا يلبث أن يسوق لنا سببا آخر يرجع إلى المعاملات المالية ، وسطو الأفشين على أموال الدولة التى كانت تقع فى يده أثناء الحروب ، فهو يذكر عن حوادث سنة خمس وعشرين ومائتين : وفى هذه السنة غضب المعتصم على الأفشين وحبسه ، وكان سبب ذلك أن الأفشين كان أيام محاربة بابك الخرمى لا تأتيه هدية من أهل أرمينية وأذربيجان إلا بعث بها إلى أشروسنة (الموطن الأصلى للأفشين) وكان عبد الله بن طاهر يرصد هذه الأمور ويعلم بها الخليفة ، فكتب إليه المعتصم يأمره بإعلامه بجميع ما يحصل عليه الأفشين من أموال ، ففعل عبد الله ذلك ، فكان الأفشين كلما اجتمع عنده مال يجعله على أوساط أصحابه ويسيرهم إلى أشروسنة فوقعوا فى يدى عبد الله بن طاهر ففتشهم ووجد المال فى أوساطهم ، وقالوا إن المال للأفشين ، فأخذ المال وأعطاه الجند وكتب إلى الأفشين يذكر له ما حدث ، ويخبره بأنه لم يصدق أقوال القوم ، وأنه أعطى المال إلى الجند لأنه مال أمير المؤمنين . فكتب إليه الأفشين . إن مالى ومال أمير المؤمنين واحد ، وسأله إطلاق القوم ، فأطلقهم . فكان ذلك سبب الوحشة

بينهما ، وجعل عبد الله بن طاهر يتتبع الأفشين حتى أوقع به فيما كان بينه وبين مازيار من مكاتبات .

ثم يمضى ابن الأثير فى شرح تطور الخلاف بين الأفشين وسيده المعتصم فيقول : وتحقق المعتصم أمر الأفشين فتغير عليه ، وأحس الأفشين بذلك فلم يدر ما يصنع ، فعزم على الهرب إلى الموصل ثم يعبر نهر الزاب إلى أشروسنة (موطنه الأصلى) ليستميل الخزر على المسلمين ، فلم يمكنه ذلك ، فعزم على أن يعمل طعاما مسموما ويدعو المعتصم والقواد ، فإن لم يحضر المعتصم عمل السم فعله فى القادة الذين يكيدون له . ولكن الجواسيس أسرعوا إلى المعتصم وأطلعوه على تدبير الأفشين ، فأمر المعتصم بإحضار الأفشين ، فجاء فى سواده فأمر بأخذ سواده ، وحبسه فى الجوسق ، وأمر بتشكيل محكمة لمحاكمته تضم ثلاثة من مشاهير الدولة هم : الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبى دؤاد قاضى قضاة المعتزلة ، وإسحق بن إبراهيم محافظ بغداد .

ووجهت المحكمة إلى الأفشين عدة تهم تم جمعها عن طريق الخصوم الذين كانوا يكيدون ويدبرون له الدسائس . وكانت التهمة الأولى أن الأفشين عمد إلى رجلين كانا قد وَجَدا بيتا فيه أصنام فى أشروسنة ، فأخرجا الأصنام منه ، وحولاه إلى مسجد ، وصار أحدهما إماما للمسجد ، والآخر مؤذنا ، فضرب الأفشين كلا منهما ألف سوط حتى عرى ظهراهما من اللحم ، ودعت المحكمة الرجلين وعليهما ثياب رثة فكشفا عن ظهريهما وهما عاريان فقيل للأفشين : أتعرف هذين ؟ قال : نعم . . هذا مؤذن وهذا إمام بنيا مسجدا بأشروسنة فضربت كلا منهما ألف سوط وذلك أن بينى وبين ملك تلك البلاد عهدا وشرطا أن أترك كل قوم على دينهم فوثب هذان على بيت كان فيه أصنام أهل أشروسنة فأخرجا الأصنام وجعلاه مسجدا ، فضربتهما على هذا .

كفـــر :

أمـا التهمة الشـانية فهـى أنهم عثروا فى بيت الأفشين على كتـاب قد زين بالـذهب والجوهـر والديبـاج فيه كفـر باللـه . ورد الأفشين على هذه التهمـة بـالإقـرار بها ، وقال إنـه ورث الكتـاب عـن آبـائه ، والكتاب فيـه مـن آداب العجم ، وفيه كفر ، فكنت آخذ الآداب وأترك الكفر ، ووجدته محلى بالذهب ولم أكن فى حاجـة إلى المال حتى أجرد الكتاب من حليته ، ومـا ظننت أن هذا يخرج عن الإسلام ، وليس شأن الكتاب بعـد ذلك إلا شأن كتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك ، وهما فى منازل القضاة ، لم يعترض عليهما معترض .

وتقدم (الموبذ) أى الكاهن أو القاضى وقال : إن هذا يأكل لحم المخنوقة ويحملنى على أكلها ويـزعم أنها أرطب من لحم المذبـوحة ، وقال لى يومـا : قد دخلت لهؤلاء القـوم فى كل شـىء أكرهه حتـى أكلت الـزيت وركبـت الجمل والبغل ، غير أنى إلى هذه الغاية لم تسقط عنى شعرة (يعنى لم آخذ شعر العانة ولم أختتن) فقال الأفشين للقضاة : أخبرونى عن هذا . . هل هو ثقة فى دينه ! وكان مجوسيـا وإنما أسلم حـديثا . . فقـالوا : لا . . فقـال : فما معنى قبـول شهادته ؟ثـم قال للشاهد : ألست كنت أدخلـك بيتى وأطلعك على سرى ؟ قال : بلى . . قـال : لست بالثقة فى دينـك ولا بالكريم فى عهـدك إذ أفشيت سرا أسررته إليك . .

ثـم تقدم الشـاهد الثالث فقال إن أهـل مملكته يكتبون له بلغـة أشروسنة ما تفسيره بالعـربية « إلى إله الآلهة مـن عبده فلان بن فـلان » فقال محمد بـن عبد الملك الزيات : المسلمون لا يحتملون ذلك فما أبقيت لفرعون إذ قال « أنا ربكم الأعلى » !! ودافع المتهـم عن نفسه فقال : إن هـؤلاء القوم كانوا يكتبـون لأبى وجدى ولى بـذلك قبـل أن أدخل الإسلام ، فكـرهـت أن أضـع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم .

وتقدم الشاهد الرابع فقال إن الأفشين كان يكتب إلى مازيار أنه لن ينصر هذا الدين الأبيض (المجوسية) إلا أنا وأنت وبابك . . فقال الأفشين : هذا يدعى أن أخى كتب إلى أخيه لا يجب على ، ولو كتبت هذا الكتاب إليه لأستميله إلى وثيق بى ، ثم آخذه بقفاه وأحظى به عند الخليفة كما حظى عبد الله بن طاهر ، فزجره ابن أبى دؤاد ، فقال له الأفشين : يا أبا عبد الله أنت ترفع طيلسانك ، فلا تضعه حتى تقتل جماعة . . وكان الأفشين يشير بذلك إلى نزعة العنف عند أبى دؤاد وموقفه المعروف فى حض الخليفة على إيذاء الإمام أحمد بن حنبل وجماعة الفقهاء الذين رفضوا مسايرة المعتزلة فى مقولة (خلق القرآن) .

وفاجأ ابن أبى دؤاد المتهم بسؤال : أمطهر أنت ؟

قال : لا . .

قال القاضى : فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام والطهور من النجاسة؟

قال الأفشين : أوليس فى الإسلام استعمال التقية ؟

قال القاضى : بلى . .

قال : خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت . .

قال القاضى : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف . فلا يمنعك ذلك أن يكون ذلك فى الحرب . . وتجزع من قطع قلفة ! !

قال : تلك ضرورة تصيبنى فأصبر عليها ، وهذا شىء استجلبه وحسم ابن ابى دؤاد الأمر وقال لزملائه : قد بان لكم أمره . . وقال للقائد التركى (بغا) الكبير : عليك به . . فضرب بغا بيده على منطقته فجذبها ، وأخذ بمجامع القباء عند عنقه ، ورده إلى محبسه .

النهايـة :

وشعر الأفشين أن نهايته قد اقتربت ، وربما ساوره الأمل فى عفو المعتصم

فبعث إليه برسول هو حمدون بن إسماعيل ، فأخذ يعتذر عما قيل فيه وقال : قل لأمير المؤمنين إنما مَثلى ومثلك كرجل ربى عجْلا حتى أسمنه وكبر ، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا من لحمه ، فعرضوا بذبحه ، فلم يجبهم ، فاتفقوا جميعا على أن قالوا : لم تربى هذا الأسد فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه ؟ فقال لهم : إنما هو عجل فقالوا : هذا أسد فسل من شئت (عنه) وتقدموا إلى جميع من يعرفونه وقالوا لهم : إن سألكم عن العجل فقولوا له : إنه أسد وكلما سأل إنسانا قال : هو سبع فأمر بالعجل فذبح وإنى أنا ذلك العجل كيف أقدر أن أكون أسدا الله الله فى أمرى ، قال حمدون : فقمت عنه بين يديه طبق فيه فاكهة قد أرسل به المعتصم مع ابنه الواثق وهو على حاله فلم ألبث إلا قليلا حتى قيل : إنه يموت أو قد مات فحمل إلى دار إيتاخ فمات بها وأخرجوه وصلبوه على باب العامة ليراه الناس ثم ألقى وأحرق بالنار وكان موته فى شعبان ، قال حمدون : وسألته هل هو مطهر أم لا ؟ فقال : إلى مثل هذا الموضع إنما قال لى هذا والناس مجتمعون ليفضحنى إن قلت : نعم قال : تكشف والموت كان أحب إلى من أن اتكشف بين أيدى الناس ولكن إن شئت أتكشف بين يديك حتى ترانى فقلت له : أنت صادق ، فلما انصرف حمدون وبلغ المعتصم رسالته أمر بقطع الطعام والشراب عنه إلا القليل حتى مات ، قال : ولما أخذ ماله رأى فى داره بيتا (فيه) تمثال إنسان من خشب عليه حلية كثيرة وجوهر وفى أذنيه حجران مشتبكان عليهما ذهب فأخذ بعض من كان مع سليمان أحد الحجرين وظنه جوهرا ـ وكان ذلك ـ ليلا فلما أصبح نزع عنه الذهب ووجده شيئا شبيها بالصدف (الذى) يسمى الحبرون ووجدوا أصناما وغير ذلك والأطواف الخشب التى كان أعدها ووجدوا له كتابا من كتب المجوس وكتبا غير فيها ديانته .

ويقال إن الأفشين رد إلى الحبس ومنع عنه الطعام والشراب إلى أن مات ثم صلب وأحرق بالنار. وكان آخر كلمة قالها قبل موته : كنت أتوقع منكم ذلك .

وبعد صلبه وحرقه عاد الشاعر أبو تمام إلى ذمه بعد أن كان قد مدحه وهو في أوج المجد ، وقال في قصيدة طويلة :

قد كان بوأه الخليفةُ جانبا ... من قلبه حَرَماً على الأقدار
فإذا ابنُ كافرة يُسرُّ بكُفره ... وَجْداً كوجْد فَرَزْدَقٍ بنوار

ومنها :

مازال سرُّ الكفر بين ضُلوعه ... حتى اصْطَلى سِرَّ الزناد الواري
ناراً يُساورُ جسمَه من حرّها ... لَهَبٌ كما عَصْفَرَتْ شق إزار
طارت لها شعلٌ يُهدِّمُ لفحُها ... أركانَه هَدماً بغير غُبار
فصَّلْنَ منهُ كل مَجْمَع مَفْصِل ... وفَعلن فاقرة بكل فَقَار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ... مَا كان يرفعُ ضَوءها للسَّاري
صلّى لها حياً وكان وقودها ... ميتاً ويدخلها من الفُجار
يا مَشهَداً صَدَرَتْ بفرحته إلى ... أمصارها القصوى بنو الأمصار
رَمَقوا أعَالى جذعه فكأنما ... وَجَدُوا الهلال عشيَّة الإفطَار

محنة رشيد الدين مؤرخ المغول

أعرف أن هذه المأساة سوف تثير شجن القارىء وتملأ قلبه بالحزن والألم ، ولكنى أعرف أيضا أن صفحات التاريخ مليئة بأمثال هذه الفواجع التى راح ضحيتها رجال أفذاذ خدموا أوطانهم بكل شرف ونبل ولم يلقوا سوى الجحود ، وربما انتهت حياتهم على أعواد المشانق أو تحت حد السيف ، والمشكلة أننا لا نقبل على قراءة هذه الصفحات القاتمة لأن كتاب التاريخ لا يحبون لقرائهم أن يتألموا ، فيبحثون عما يدخل البهجة والمسرة إلى قلوبهم ، فتراهم يتحدثون عن بطولات الأباطرة والملوك والسلاطين ويتابعون انتصاراتهم فى ساحات الوغى ، ولكنهم نادرا ما يتطرقون إلى ما يجرى فى دهاليز القصور من جرائم تناقض مبادىء العدل والحق والخير والجمال ، وكتاب التاريخ لايحبون الحديث عن مجريات القصور ودسائسها وسلوكياتها ربما لأنهم يتصورون أن الحديث عنها يدخل فى نطاق التلصص والتجسس والاطلاع على عيوب الناس ، وهى أمور ينهى عنها الدين ، وربما لأنهم يعتبرون تصرفات الحكام من المقدسات التى لا يجوز كشفها للعامة حتى تبقى صور الحكام كما يتخيلها العامة محاطة بهالات المجد .

لكل هذه الأسباب ، مجتمعة أو منفردة ، رأيت أن أقص عليك مأساة هذا المؤرخ العظيم ، والعالم الموسوعى والبحاثة المدقق الذى قضى كل حياته فى خدمة العلم ورعاية العلماء فى البلاط المغولى الإسلامى ، حتى إذا أوشكت شمس حياته على الغروب ، وعندما تهيأ للنهاية الطبيعية التى تنتظر كل حى ،

إذا بالفتنة تستيقظ من رقادها ، و إذا بقرون الشر تطل من مكمنها ، وبدلا من أن يتركوا الرجل يمضى فى شيخوخته إلى مثواه الأخير فى يسر وهوادة ، أخذوه من الدار إلى النار بعد أن حاكوا له مؤامرة خسيسة ، و بعد أن عقدوا له محاكمة صورية عن جريمة لم يرتكبها ، ولم يرحموا شيخوخته وساقوه إلى ساحة الإعدام ، وضربوه بالسيف فى وسطه فشطروا جسمه إلى شطرين على عادة المغول فى الإعدام .

هذا هو رشيد الدين فضل الله ، الوزير الذى جلس على قمة دولة المغول الإسلامية التى أقاموها فى إيران بعد أن دخلوا فى الإسلام فأدار شئون المملكة بكفاءة أثارت حقد حساده فكادوا له ، وكان الرجل على عادة عظماء ذلك الزمان موسوعى الثقافة ، و إليه يرجع الفضل فى كتابة تاريخ المغول فى مؤلفه الشهير (جامع التواريخ) الذى جمع مادته من الوثائق الرسمية التى عثر عليها فى قصور أباطرة المغول ، وترك للعالم هذا التراث العلمى الكبير الذى لم يترك جانبا من جوانب الدين إلا طرقه . . فقد وضع تفسيرا للقرآن الكريم وعديدا من كتب الفلسفة والطب والفقه . . وكان من الممكن أن تظل حياة رشيد الدين طى الخفاء لولا أن توفر عليها المستشرق الفرنسى العظيم (كاترمير) فى القرن الماضى فأزاح عنها الغبار وكشف عنها الغطاء ، وقدمها إلى العالم من خلال المقدمة الرائعة التى كتبها لكتاب جامع التواريخ . . وبلغت ١٨٠ صفحة وترجمها أستاذنا الراحل الدكتور محمد القصاص . . و إليك القصة من بدايتها .

شبـــاب :

ولد رشيد الدين فضل الله فى مدينة همدان الإيرانية ، ولكنه قضى صدر شبابه وبقية حياته فى مدينة تبريز عاصمة الدولة المغولية «الايلخانية » التى أقاموها فى إيران . وكان جده « على » موفق الدولة أحد علماء ثلاثة عثر عليهم

هولاكو فى حملته الشهيرة على قلعة « الموت » حصن طائفة الإسماعيلية «الحشاشين» . وعرف هولاكو فضلهم العلمى ، فرفض قتلهم مع من قتلهم من سكان القلعة ، وألحقهم بخدمته ، ومن يومها ارتبطت أسرة رشيد الدين بالبلاط المغولى ، وشب فى معية أبيه داخل قصور المغول المسلمين ، ومنذ طفولته أظهر رشيد الدين تمسكا شديدا بالدين ، وعكف على التفكير فى قواعد الدين الإسلامى ، وتطبيق قوانينه فى حياته العملية ، وكان شديد التطلع إلى كشف غوامض القرآن والنفاذ إلى ماتكنه آياته من الأسرار والمعانى العميقة ، فراح يتردد على مجامع العلماء وينصت إلى تعاليمهم بشغف منقطع النظير ، ويضيف ما يغترفه من أنوارهم إلى مايصل إليه بتاملاته الشخصية ، وفى ذلك يقول : « على هذا النحو كنت أستغل أوقات فراغى ، وذلك لأنى ألحقت بقصر السلاطين منذ شبابى الغض وشغلت بدقائق الإدارة ، ومافتئت الأعمال والرحلات تجرفنى فى غمرتها ، فلم يتوفر لى من الوقت ما يسمح لى بقراءة الكتب التى كان من شأنها أن تزودنى بتعليم متين ، وتمدنى بمعارف شتى فى مختلف العلوم والآداب ، وهكذا كان على أن أقنع بالبقاء غارقا فى جهلى الأول » .

ويعلق كاترمير على هذا الاعتراف بالجهل بقوله : « ينبغى ألا نفهم هذا اللوم الذى يوجهه مؤرخنا إلى نفسه فهما حرفيا ، لإننا سنرى فيما بعد أنه لم يكن جاهلا بأية حال ، بل وسنلاحظ أنه كان يتحلى بالكثير من المعارف العميقة المتنوعة على السواء ، ولعل هذا الحكم القاسى الذى يصدره على نفسه ليس فى حقيقة الأمر إلا طريقة مستورة للإعلاء من قدر نفسه .

بدأ رشيد الدين حياته العملية طبيبا فى قصور السلاطين المغول ، حتى إذا جلس السلطان غازان محمود على العرش سنة ٦٩٤ هـ ـ ١٢٩٥ م انتبه إلى كفاءة رشيد الدين ، فقربه إليه وجعله موضع ثقته ، وكان غازان محمود يقدر

ذوى الكفاءات ، ويجمع إلى الصفات العالية التى تميز العاهل كثيرا من المعارف الواسعة فى العلوم والآداب ويجذب إلى بلاطه أهل الثقافة فلم يلبث أن أصبح رشيد الدين من خاصته ، وكثيرا ما كان يتناقش معه فى أمور الدين وتفسير القرآن الكريم ، وماهى إلا عشيه وضحاها حتى كان رشيد الدين يشغل أرفع مناصب الدولة ، ورفعه السلطان إلى منصب الوزير الأول فى الإمبراطورية بعد منافسة حامية بينه وبين بعض الطامعين فى هذا المنصب الرفيع ، وانتهت المنافسة باندحار خصومه .

وفى سنة ٦٩٩ هـ سار رشيد الدين بصحبة السلطان غازان محمود فى حملته على الشام ، وهى الحملة التى أثارت مشاعر أهالى دمشق والإمام ابن تيمية بسبب الفظائع التى ارتكبها الجنود المغول واعتداءاتهم على الحرمات مما دفع الإمام ابن تيمية إلى طلب المثول أمام السلطان ليشكو إليه من مسلك جنوده ، وكان السلطان فى ذلك معتل الصحة فأناب عنه وزيره رشيد الدين لمقابلة الإمام ، والاستماع إليه ، وظل رشيد الدين موضع ثقة سلطانه غازان محمود يرافقه فى حروبه ويترجم أوامره إلى العربية ، فلما مات غازان جلس على العرش أخوه « ألجايتو » فبقى رشيد الدين فى منصب الوزارة ، وشاركه فيه وزير آخر اسمه سعد الدين ، واحتفظ رشيد الدين لدى السلطان الجديد بنفس المكانة التى كانت له لدى سلفه حتى إن « الجايتو » جعله وكيلا عن الأميرة كتلكشاة فى عقد زواجه بها . ولما أنشأ السلطان الجديد ضاحية جديدة أسماها « السلطانية » أقام فيها رشيد الدين ضاحية تضم حوالى ألف بيت ، وكان من بين عمائرها مسجد فخم تحليه منارتان عظيمتان وينتهى بمقصورة تشرف عليه ، وكان فيها أيضا مدرسة ومستشفى وزاوية ، وقد خصصت مبالغ ضخمة لدفع رواتب المدرسين والتلاميذ والأطباء . . وهذا يدلك على عظمة هذا الوزير المثقف وجوده وكرمه وشغفه بإقامة المؤسسات العلمية والإنفاق عليها من ماله الخاص . كان الأمراء المغول يتنافسون فى الإغداق على وزيرهم

العالم حتى تكونت لديه ثروة عظيمة جاد هو بها على خدمة العلم والثقافة حتى انطبق عليه وصف الشاعر :

يجــود علينـا الخــيرون بمالهـــم ونحـــن بمال الخيريـــن نجـــود

ويحكى أحد المؤرخين المعاصرين أن رشيد الدين عندما فرغ من تأليف احد كتبه قدمه إلى السلطان الجايتو بخطبة أشار فيها إلى ماكان بين الإسكندر الأكبر والفيلسوف أرسطو حين قدم إليه أحد كتبه فمنحه الإسكندر مليون قطعة من الذهب وإن إميرا فى عظمتك ليرى أنه لا يليق بمقامه ألا يضارع الإسكندر فى كرمه ، وقبل السلطان التحدى فمنح وزيره ضياعا تبلغ قيمتها ثلاثة أمثال المبلغ المشار إليه ، وإذا كان رشيد الدين قد كرس مبالغ طائلة للعمائر الدينية والخيرية ، فإنه لم يقصر فى الإنفاق على الأعمال ذات المنفعة العامة أيضا ما دامت تضمن له مجدا خالدا ، حتى إنه أنفق ستين ألف دينار على نسخ كتبه وتجليدها وتزويدها بالصور والخرائط ، ومع هذا الإنفاق فى وجوه الخير فإن مؤرخنا لم يحاول قط أن يسىء استغلال المكانة التى كان يتمتع بها لدى ملوكه ، بل دأب طوال الوقت الذى قضاه فى البلاط المغولى على حماية ذوى الفضل ، ومنع الظلم ، والدفاع عن الضعفاء والمضطهدين . لذلك - يقول كاترمير - نرى الكتاب الشرقيين يكيلون لرشيد الدين أطيب الثناء ، ويجمعون على أنه كان وزيرا كفئا يجمع بين معارف أرسطو وحكمة أفلاطون ، وقد أضفوا عليه كل صفات التفخيم التى لابد أن يكون مبعثها الرغبة فى إنصاف أسمى كفاءة عرفوها ، حتى المؤرخين الذين عاشوا بعد رشيد الدين بقرنين من الزمان أغدقوا عليه ضروب الثناء ، مما يدل على صدق الفكرة التى كونها المعاصرون عن مواهبه وكفاءته ، وإن ذكرى صفاته المجيدة استمرت تتنقل من جيل إلى جيل بالرغم من كل الجهود التى بذلها حساده لتبغيضه وتشويه سمعته .

وعلى ذلك فإن رشيد الدين لم يكن يتمتع بسعادة صافية بالرغم من بلوغه قمة المجد والجاه والثروة ، ولم تسلم حياته من نقمة الحاسدين الذين عملوا فى الخفاء على الإيقاع به ، والإساءة إليه ، وعبئوا لهذا الغرض قوى الكذب والنميمة للإطاحة به ، حتى تمكنوا فى النهاية من الوصول إلى هدفهم الخسيس . وتعرض رشيد الدين لسلسلة من المؤمرات والدسائس ، ولكنه كان يخرج منها سالما بفضل أمانته وسلامة تصرفاته ، ووضوح ولائه لملوكه ، حتى كانت المؤامرة الأخيرة التى أودت بحياته بعد أن ترك الوزارة وعكف على التعبد فى انتظار ملك الموت ، ولكن أعداءه أبوا أن يتركوه يقضى بقية أيامه فى هدوء ودفعهم الحقد الدفين إلى الانتقام منه دون مراعاة لشيخوخته .

شـــــريك :

وكان لرشيد الدين شريك فى الوزارة اسمه « على شاه » حسب النظام المغولى الذى يقضى بتوزيع السلطات التنفيذية على شخصين حتى يكون كل منهما رقيبا على الآخر فيستحيل التواطؤ بينهما ، ولكن كان من شأن هذا التقسيم أن يؤدى إلى تنازع الاختصاص بين الشريكين وإلى محاولة كل منهما أن يغض من قدر صاحبه وأن يضع أمامه العراقيل ويحمله مسئولية الإخفاق ، وبالاختصار أن يسعى بكل جهده إلى التخلص من منافسه حتى تخلص له وحده السلطة ورعاية السلطان .

وثارت بين الوزيرين مشاكل لا تنتهى حول الإيرادات المالية ، فكلما طلب السلطان مالا اعتذر كل منهما وألقى بالمسئولية على زميله ، وكان تنازع السلطات بين الرجلين سببا من أسباب الخلل الذى أصاب إدارة الدولة ، وأتاح الفرصة للوقيعة بينهما والدس لهما عند السلطان . وكان كل منهما يحاول أن يبرىء ساحته عن طريق الزلفى للأمراء المغول الذين كانوا يشغلون المناصب

العليا فى الجيش ، فانحاز رشيد الديـن إلى « جوبان » أمير الأمراء أى قائد عام الجيش ، وأصبح يلجأ إليه كى يعمـل على إفساد الدسائس التـى تحاك ضده عند السلطان .

وفى هذه الأثنـاء مات السلطان « الجايتـو » وجلس ابنه « أبـو سعيد » على العـرش . وحين علـم رشيـد الـدين بقـدوم السلطـان الشـاب إلى عـاصمـة الإمبراطورية أسرع لاستقبـاله ، وفى نفس الوقت اتخذ جميع الاحتيـاطيات التى رآها ضرورية لحماية نفسه من دسائس أعدائه ، ولاحتفـاظه بالمركز الرفيع الذى قدم له جزاء خدماته ، وكان أول مرسوم أصدره العهد الجديد الاحتفاظ برشيد الديـن وعلى شاه فى منصب الـوزارة ، وتعيين ابنه جلال الديـن ـ وكان سـاقيا للسلطان الراحل ـ فى منصب كبير فى آسيا الصغرى .

وسار الخلاف بين الوزيرين على نفس الأسلوب الذى كان سائدا فى العهد السابـق ، واشتدت الخصـومة بينهما واخذ على شـاه يتربص بشريكـه وينتظر الفرصة للإطاحة به ، واحتاط رشيد الدين للأمر فوثق صلاته بالأمير (جوبان) ومازال يضاعف له مودته وهداياه حتى كسب جانبه نهائيا ، ولما علم على شاه بـأمر هـذه الرابطـة ارتاع لها ارتيـاعا شـديدا وأدرك مـا يمكن أن يحيـق به مـن جرائها ، لأن الأمير (جوبان) كان تام السيطرة على نفس السلطان أبو سعيد ، أو بالأحرى كان هو الذى يحكم الإمبراطـورية بسلطات مطلقة ، فاشتغل على شاه ليلا ونهارا فى سبيل البحث عن تهمة يوجهها إلى رشيد الدين لكى تودى به حتى استطاع أخيرا أن يستميل معظم رجال الـديوان السلطانى ، فتكتلوا ضد رشيد الدين للإيقاع به عند السلطـان حتى بلغوا مرادهم وأصدر السلطان أبو سعيد مرسومـا بخلع رشيد الدين فى شهر رجب عام ٧١٧ هـ ، بعد ربع قرن قضاه فى خـدمة الـدولة ، وغادر رشيـد الديـن عاصمة الـدولة (السلطـانية) وذهب إلى تبريز ليرعى المؤسسات العلمية والخيريـة التى أقامها هناك ، وكان

المفروض أن يبقى فى عـزلته بعيدا عن مشـاكل الحكم ومتاعبـه ، ولكنه تعرض للضغوط من جانب صديقه الأمير (جـوبان) كى يعود إلى العاصمة ويستعيد ثقة السلطان ، وبعث إليه جوبان برسـالة يقول له فيها : «إن غيابك قد أضر بمصالح المملكة ضررا بليغا ، ولابد من حضورك لإعادتها إلى سيرتها الطبيعية . فعجل بالمجىء إلى القصر لتسلم المنصب الذى فقـدته » . واعتذر رشيد الدين وأجابه بهذه العبارات : « لقد قضيت حياتى شريفا ، ولم يأت لأحد غيرى أن يقوم بمهام الوزارة بنفس النجاح والشرف اللذين توفرا لى ، واليوم أصبح لى عدة أبناء يشغلون مناصب هامة ، فـأريد إذن ، أن أقضى الأيام القليلة التى بقيت لى فى الحياة فى خلوتى ، وأن أنفقها فى التكفير عن أخطائى » .

إلحـــاح :

ولم يقتنع جوبان بهذه الأعذار ، ولم يترك الرجل فى عـزلته فألح عليه إلحاحا شديدا أن يظهر فى القصر ، واستجاب الرجـل لهذا الرجاء المتواصل ، وحضر إلى جوبان الذى استقبلـه بابتهاج عظيم ، وقال له : « سـأذهب إلى السلطان وأخبره أنى علمـت بالتجـربة أنه لا يـوجد من يماثلـك فى حكـم الإمبراطـورية بجدارة وحزم ، وإن الإدارة قد شلت حركتهـا بعد رحيلك ، وفقدت رونقها » ثـم أضاف قـوله : « انتظرنى حتـى أعود إليك بالإجـازة التى ترجعك إلى مـرتبة الوزارة » .

ولعل القارىء يقول ـ كما يقول كاترمير ـ إنه كان يجدر برشيد الدين أن يصر بشجاعـة على رفض هـذه المغريات ، وكـان عليه أن يتذكـر أن هذا الـرجل ـ جوبـان ـ الذى يتـوسل إليه الآن فى أن يتسلـم زمـام الحكـم ، هو نفسـه الذى أسلمه بكل جبن لانتقام أعدائه بعد أن تظاهـر له بالصداقة الحميمة ، ولكن رشيد الدين كان فى هذه الظروف يستحق الرثاء أكثر مما يستحق اللوم ، فانقاد

أمام إغراء الإلحاح عليه من أمير يمثل المركز الأول فى الدولة ولا ينقصه غير اسم السلطان ، وتأثر للفوضى التى حلت بالإدارة ، وتمنى أن يقدم علاجا ناجعا للداء الذى سببه جهل خلفائه واختلاساتهم ، ولعله اندفع أيضا ببقية طموح لا يستطيع أحكم الرجال أن يقضى عليه فى نفسه قضاء مبرما ، فقبل آسفا . . وكان هذا القبول سبب ما حل به من كوارث .

والذى حدث أن خصوم رشيد الدين ما إن علموا بنبأ ظهوره فى القصر حتى عمهم الحزن والذعر ، وتفتق ذهنهم عن مؤامرة خسيسة قضت عليه ، واحتاطوا للأمر فاستمالوا رجلا اسمه (ابو بكر أقا) كان موضع ثقة الأمير (جوبان) فتعهد لهم بحرمان رشيد الدين من حماية الأمير ، أما تفاصيل المؤامرة فكانت كما يلى :

ذهبوا إلى السلطان وأخبروه ، أنه لما كان أبوه السلطان الجايتو فى مرضه الأخير نصحه رشيد الدين ـ عمدا ـ باحتساء شراب معين سبب موته ، وإن إبراهيم بن رشيد الدين ـ وكان ساقى السلطان ـ هو الذى قدم له الشراب بالاتفاق مع أبيه ، وتولى أحد خدم الملك واسمه (زنبورى) إبلاغ السلطان بالنبأ الأليم فارتاع لذلك . وأمر على الفور باستدعاء رشيد الدين إلى القصر ومحاكمته ، وجاء شهود الزور فأدلوا بأقوالهم ، وعندئذ أمر السلطان بإعدام رشيد الدين وابنه جلال الدين .

ويروى مؤرخ معاصر اسمه الصفاعى تفاصيل المأساة فيقول : جىء برشيد الدين إلى السلطانية على خيل البريد ، ولما مثل أمام الأمير جوبان ـ الذى أغراه بالعودة ـ وجه إليه تهمة دس السم للسلطان ، فأجاب بقوله : « كيف يتأتى أن أرتكب مثل هذا الجرم ، وأنا أدين لهذا السلطان وأخيه برفعتى ؟ ففى عهديهما أسندت إلى إدارة المملكة وماليتها ولم يكن يبت فى شأن من الشئون إلا

بـأمرى ، وبفضـل منح هـذين السلطـانين أصبحت أمتلـك العقار والنقـود والجواهر والثروات التى لا تحصى ! » .

واستدعى ابن حران الطبيب الذى كان بجوار الجايتو عنـد مرضه فقال : أصيب السلطان بعسر هضم شديد مصحوب بإسهال غريب وقىء متلاحق، ولما دعيت إليه قررت بالاتفاق مع الأطباء الآخرين إعطاء السلطان دواء قابضا وكـان رشيد الـدين وحـده على عكس هـذا الرأى ، إذ ادعـى أن هذا التعب ناشـىء عن تخمة ، وإنه لابـد من مواصلـة التفريغ ، فأعطينـا السلطان دواء ملينا زاد الإسهال وأدى بالمريض إلى القبر .

النهـايـة :

واعترف رشيد الـدين بهذه الحقيقـة ولم ينكرهـا على أساس رؤيتـه كطبيب لحالة المريض ، ولكـن جوبان أدانه بـالتسبب فى موت السلطان وحكـم عليه بالموت ، واقتيد هو وابنه إبراهيم إلى ساحة الإعدام ، وبدىء بإعدام ابنه الذى لم يتجـاوز السادسـة عشرة مـن عمره ، وكـان يجمـع بين جمال الخلقة وطهـارة النفس ونبل الخلق ، وشاهد رشيد الدين جسد ابنه وقد انفصل إلى نصفين بعد أن ضرب بالسيف فى وسطه ، وبينما كان يتقدم ليلقى مصيره الأخير طلب من أحد الشهود أن يقول لغريمه على شاه : « هاأنذا أموت بريئا ضحية لاتهاماتك الكاذبة وسيأتى يوم تطالبك فيه العدالة الإلهية بحساب إعدامى » .

ولم ينته من هـذه الكلمات حتى كان (حاجـى النفدى !!) أحد المشتركين فى المؤامرة قد ضربه بالسيف فشطر جسمـه شطرين ، ثم اجتـزوا رأس رشيد الديـن إلى تبريز وطـاف بها الغوغاء فى الشـوارع وهـم يصيحـون : « هذا رأس اليهودى الملعـون الذى حرف كلام الله » ويقـال إن جسمه قطع إربـا وأرسلت أشلاؤه إلى مختلـف مدن الإمبراطـورية ، وانطلقـت الشرطة تنهـب دوره ودور

ابنـائه وأقاربـه وتـدمر الحى الـرشيـدى المسمى بـاسمـه فى تبريز ، وصـادروا منقولاتـه وعقاراته وحتى الأمـوال التى أوقفها على الأعمال الخيرية لم تسلـم من المصادرة .

وهكذا لقـى رشيد الديـن ـ المؤرخ العالم الفيلسوف ـ حتفه وهو فى الثـالثة والسبعين من عمره بعد خدمات جليلة طـويلة كان يبدو أنها تؤهله لجزاء غير هذا الجزاء . . ولا أجـد ما أختتم به مـأساة رشيد الـدين أبلغ من هـذه العبارة التى أوردها المستشرق كـاترمير الذى كان لـه فضل تعريف العـالم بتراث رشيد الديـن العلمى والأدبـى والتاريخى ، فيقـول : « من الأمـور الغالبـة فى تصور الشرق أن يكون الموت العنيـف جزاء مشتركا لكـل من الجريمـة والفضيلة . إذ يقـدم لنـا تاريـخ هـذه الأقطـار أمثلـة شنيعـة لا تنسى فى كـل صفحـة مـن صفحاته ، وفى كل مكان نرى الفضيلـة تتلوى بين مخالب الغدر والدسيسة ، حتى تهوى تحت وطـاة هذا الصراع غير المتعادل ، وإذا كان البـاغى يجنـى فى النهايـة العقاب الذى تستحقـه أوزاره ، فإنـه فى معظم الأحيان لا يهلـك لأنه باغ . . بل لأن تركته قد أسالت لعاب طاغية آخر . . » .

نكبـــة البـــرامكـــة

فى ليلة السبت غرة المحرم من عام ١٨٧ هجرية الموافق ٩ يناير عام ٨٠٧ ميلادية عاد الخليفة هارون الرشيد من رحلة الحج . فتوافد عليه الأمراء والكبراء والشعراء مهنئين بسلام العودة . . فلما فرغوا من تقديم مراسم التبريك انصرفوا ولم يبق فى حضرة الرشيد سوى وزيره المقرب ، وصديقه الحميم ، وخله الوفى جعفر بن يحيى البرمكى ، وجلس الخليفة ووزيره يتسامران ويروى كل منهما للآخر ما عاناه طوال أيام الفراق . وكانت أيام الحج هى أطول فترة باعدت بين الصديقين اللذين لم يفترقا إلا بقدر ساعات النوم ، حتى إن الرشيد أمر صانع ملابسه بأن يصنع له ثوبا فضفاضا يتسع لهما معا . .

بلغ جعفر من قلب الرشيد منزلة لم يبلغها أحد من أولاده أو أخوته ، وبلغ من علو القدر ونفاذ الأمر وجلال المنزلة عند الرشيد ما جعله محلا لنقمة الحاسدين وغيرة العلية النافذين وقد رأوا بأعينهم كيف أصبح جعفر صاحب الأمر والنهى فى شئون الإمبراطورية العباسية ، وكيف أن الرشيد كان يسميه (أخى) وعهد إليه بإدارة شئون الأقاليم الغربية من الأنبار إلى أفريقية (تونس) وعلموا أن الخليفة كان يفضل جعفرا على أخيه الفضل ذلك الوزير الحازم المتجهم الوقور الذى لا يعرف للمزاح محلا . . ولا تلمس شفتاه خمراً حتى إنه كان يقول « لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى لما شربته » . ولم تكن هذه الصفات توافق مزاج الرشيد الذى كان يميل إلى المرح ، ويحب الشراب ، ويأنس إلى المنادمة . . وكان يجد مبتغاه فى شخصية جعفر ، وأراد أن ينقل

خاتم الدولة من الفضل إلى أخيه ، وتحرج الرشيد من أن يسيء الفضل فهم دوافع الخليفة فلجأ إلى الأب فبعث إلى ابنه الفضل : إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتم الخلافة من يمينك إلى شمالك . . وتقبل الفضل الأمر راضيا . . ونقل الخاتم إلى عنق أخيه دون غضاضة أو حسد . فقد كان سعيدا بتلك العاطفة الجياشة بين أخيه والخليفة ، على عكس أبيهما يحيى بن خالد الذى كان يدرك بحصافته وخبرته مخاطر هذه العلاقة على ولده جعفر وعلى أسرة البرامكة كلها .

كان يحيى رجلا عاقلا يعرف ظروف عصره ، ويعرف المناخ السياسى الذى يعيش فيه جيدا . . وهو مناخ مشبع بالمؤمرات والدسائس التى يتقنها طلاب المناصب ، وأصحاب الطموحات الكبيرة الذين يغيظهم ماوصلت إليه أسرة البرامكة من مجد ونفوذ ، وكان يخشى من إسراف الرشيد فى حب ابنه جعفر . ولا يأمن أن ينقلب هذا الحب إلى نقيضه عندما تدور الأيام دورتها وتتحول الريح إلى عكس اتجاهها ، وكم حاول الأب الحصيف أن ينصح ابنه بالتعقل والاتزان فى علاقته بالخليفة ، ولكن الابن العاطفى لم يسمع لنصح أبيه . عندئذ اتجه يحيى إلى الخليفة نفسه لعله يخفف من عاطفته الحارة نحو جعفر . وقال له ذات يوم : يا أمير المؤمنين . . أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ، ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك علىّ منك ، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك . . كان ذلك واقعا بموافقتى . . وآمن لك علىّ . . فقال له الرشيد : يا أبت ليس بك هذا . . ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل . .

كان يحيى يتكلم بلسان العقل والحكمة . . ويريد أن تظل العلاقة بين الخليفة وجعفر فى إطار العمل والمسئولية ، لأنه كان يدرك بحاسته المرهفة ما تنطوى عليه نفس الرشيد من عاطفة مشبوهة . . وهو منزلق لا تحمد عقباه . . فالعواطف تتقلب وتتحول . . ولكن الرشيد لم يأبه لهذا المطلب ، وفسره تفسيرا عاطفيا بحتا ظنا منه أن الأب إنما ينحاز إلى ابنه الفضل . ويريد له مكانا أثيراً فى قلب الرشيد .

أوشك الليل أن ينتصف ولم يزل جعفر فى حضرة الرشيد يسامره ويحكى له أهم ما جرى أثناء غيابه فى رحلة الحج . حتى إذا أفرغ ما فى جعبته من أخبار طلب من الرشيد أن يأذن له بالرحيل فى الغد إلى خراسان ، ولكن الرشيد استمهله وطلب منه ألا يتعجل فى السفر حتى يمكثا بضعة أيام تعوض أيام الفراق ، واستجاب الوزير لرغبة مولاه . . واستأذن فى الانصراف إلى بيته على أن يوافيه فى الصباح . . وهم جعفر بالانصراف إلى بيته ، ونهض الرشيد يودع صديقه وحبيبه حتى باب القصر ويشدد عليه فى الحضور مبكرا . . وغادر جعفر القصر ، وعاد الرشيد إلى قاعة العرش . بعد أن خلت من الحجاب ، ووجد الخليفة نفسه وحيدا لا يسمع إلا أنفاسه وهى تترجرج فى صدره . . وعيناه تنظران إلى لاشىء . . والهواجس تتصارع فى خفايا قلبه وكأنها شواظ من لهب محموم .

كان الرشيد يدرك خطورة القرار الذى يلح عليه إلحاحا . . ولكنه وصل إلى نقطة اللاعودة . . ولم يعد لديه متسع لمراجعة القرار الذى ارتضاه ضميره واستراح إليه عقله ، واستقرت عليه مشيئته . لقد انتهت إلى الأبد فرصة التردد ، وكان عليه أن يمضى فى تنفيذ الخطة التى دبرها مهما كان الثمن . . وأيا كانت النتائج . . فالثمن وإن كان فادحا . فهو أيسر من الخطر الذى يهدد دولة هو مسئول عنها أولا وأخيراً . . وانطلاقا من هذه المسئولية اتخذ قراره الخطير الذى لم يبح به لأحد .

أفاق الرشيد من غفوته وصفق بيديه فدخل عليه خادمه المطيع « مسرور» ذلك السياف الشهير الذى احترف قطع الرقاب بضربة واحدة من يده الفولاذية التى لاتخطىء أبدا . . كان مسرور زنجيا ألقت به رياح النخاسة على ساحل البصرة منذ صباه . . واتخذ طريقه إلى قصر الخليفة المهدى والد الرشيد ، واستطاع أن يخترق الصفوف ويصل إلى حضرة الخليفة لما كان يتمتع

به من قوة عضلية خارقة ، وجسارة نادرة ، ونفس صخرية لاتعرف الرحمة أو الشفقة ، فلا يهتز له جفن وهو يرى الرؤوس تتمايل على أكتاف أصحابها ، ولا يعرف الضعف سبيلا إلى قلبه وهو يرى الدماء تتفجر من الرقاب بعد قطعها ، ووجد الخليفة المهدى مبتغاه فى مسرور فتعهد إليه بقطع رؤوس الزنادقة الذين أشاعوا الإلحاد والفجور فى المجتمع العباسى ، وورث الرشيد السياف «مسرور» ضمن التركة المثقلة التى ورثها عن أبيه المهدى وأخيه الهادى . . وحل مسرور من نفس الرشيد مكانا مفضلا وأصبح يرافقه مثل ظله ، وينفذ أحكامه الفورية فى لمح البصر .

دخل مسرور على سيده الخليفة فراعه أن وجده مهموما شاردا . . حتى إن الرشيد لم يفطن إلى وجوده إلا بعد أن قال مسرور ثلاثا : لبيك يا مولاى . . فرفع الرشيد رأسه من بين كفيه وسدد إلى مسرور نظرات تقدح شررا . . وقال له : إنى أعهد إليك بأمر جلل .

قال مسرور وهو يضع يده على قائم سيفه : إنى طوع أمر مولاى .

قال الرشيد : عليك أن تذهب لتوك إلى جعفر بن يحيى البرمكى .

جحظت عينا مسرور وتعلقت بشفتى الرشيد . فإذا به يقول :

ـ وتأتينى برأسه . .

كاد مسرور أن يصعق لهول الكلمات التى صبت فى أذنيه وكأنها نحاس مصهور . . ولم يصدق نفسه . . وتوقف برهة عن التنفس . . ولم تتحرك قدماه كأنهما تسمرتا فى مكانهما . . ولاحظ الرشيد هول الصدمة على وجه مسرور فقال وهو يضغط على مخارج الألفاظ :

ـ مالك لا تتحرك . . هل أصبت بالشلل ؟ امض إلى ما أمرتك ولن أبرح مكانى حتى تأتينى برأس جعفر .

عندئذ أدرك مسرور أن ما سمعه لم يكـن وهما . . وإنما هى الحقيقة التى لم تخطر على باله . . ولو أطلق للسانه العنـان لقال لسيده : وهل طاوعك قلبك يا مولاى على أن أقطع رأس الرجل الـذى أحببته حبا جما . . والـذى أخلص لك إخـلاصا صـار مضرب المثل على ألسنـة الخلق أجمعين . . ولكـن مسرورا الذى لم يتعود مراجعة سيده لم يجرؤ على البوح بما يدور فى نفسه . . وإنما الذى تكلم هو الرشيد فقال :

ــ خذ معـك حماد بن سـالم أبـو عصمة . . ومعكما جماعـة من الجنـد . . وحذار أن يفلت منكم اللعين جعفر . . وإنى فى انتظاركم . .

كان جعفر قد عـاد إلى بيته بعد أن فرغ من تحية الرشيد ومسـامرته . . وبدأ يستأنف سهرتـه ومعه جبريل ابن بختيشوع الطبيب . . والمغنى الضرير « أبو زكار» ودارت الكؤوس وهم فى نشوة من أمرهـم . . كان جعفر يتمايل طربا على صوت «أبوزكار» وهو ينشد قصيدة تنضح كلماتها بالتشاؤم ومطلعها :

فلا تبعد فكـل فتى سيأتى   عليـــه الموت يطرق أو يغادى

استفاق جعفر من نشوته وهو يرى مـسرورا السياف يقتحم عليه غرفته . . ويقف أمـامه وجها لوجـه دون استئذان . . دهش جعفـر لمسلك مسرور . . وتوقع أن يعتذر مسرور ولكنه لم يفعل . . عندئذ سأله :

ــ ما الذى جاء بك يا مسرور ؟

قال مسرور وهو ينطق الكلمات بصعوبة : جئت منفذا أمر أمير المؤمنين .

قال جعفر : وما الذى أمر به أمير المؤمنين ؟

قال مسرور : أن أعود إليه برأسك ؟

ذهل جعفر لما سمع . . ونهض من مكانه وقال : لعلك تهزل يا مسرورا

قال مسرور : مثلى لا يعرف الهزل يا سيدى .

أدرك جعفر أن الأمر جد لا هزل . . وأن منيته قد حانت . . وإنه لامنجاة من القتل . . فقام يستعطف مسرورا . . ويرجو أن يتركه يدخل ليكتب وصيته . . وانهال على قدميه يقبلهما . . ولكن مسرورا قال له : أما الدخول فلا سبيل إليه . .

قال جعفر : إذن خذنى حيا إلى أمير المؤمنين . . لعل الخمر لعبت برأسه فاتخذ قراره دون وعى . . وربما ندم على قراره عندما يفيق . . ويحملك مسئولية التسرع فى تنفيذ أمره . . وما عليك إلا أن تأخذنى إليه حيا حتى تقع عينه على . . وله بعد ذلك أن يفعل ما يراه . .

ولأول مرة فى تاريخه الملطخ بالدماء تسللت الرحمة إلى قلب مسرور . . ووافق على أن يصحب معه جعفرا حيا . . لعل الرشيد يرجع عن قراره . .

وقف جعفر وقام مسرور بتقييد قدميه بحبل . واقتاده فوق بغل يحيط به الجند . وذهب إلى قصر الرشيد . . ودخل على الخليفة فى مخدعه فعاجله بالسؤال :

ـ هل جئت برأس جعفر ؟

قال مسرور : لقد جئت به حيا . . يريد أن تقع عينك عليه . . عندئذ ثار الرشيد وقال له :

ـ هو يعلم إن وقعت عينى عليه لن أقتله . . اذهب يا ابن اللخناء وأتنى برأسه . .

كان مسرور قد ترك جعفرا مقيدا فى غرفة جانبية فى انتظار القرار الأخير . . فدخل على جعفر وأخبره بما قال الخليفة . . فقال :

ـ يا أبا هاشم . . الله ! الله ! الله ! والله ما أمرك بما أمرك به إلا وهو سكران ، فدافع بأمرى حتى أصبح اؤمراه فى ثانية .

فعاد مسرور ليراجع الخليفة فما إن رآه حتى قذفه بعمود ثم قال :

ـ نُفيت من المهدى (أبيـه) إن أنت جئتني ولم تـأتنى برأسـه . . لأرسلن إليك من يأتيني برأسك أولا . . ثم برأسه آخرا .

عاد مسرور مـذعورا إلى حيث يـوجد جعفـر فضربه ضربة واحـدة فصلت رأسه عن جسده . .

أما بقية المأساة فيرويها الطبرى فيقول :

وفي تلك الليلة أمـر الرشيد بتوجيـه الجند فأحاطـوا بمنازل يحيى بن خـالد وجميع ولده ومواليه ، وكل منهم بسبيـل ، فلم يفلت منهم أحد كان حاضرا ، وحول الفضل بن يحيى ليلا فحبس في ناحية من منازل الرشيد وحبس يحيى بن خالد في منـزله ، وأخذ ما وجـد لهم من مال وضياع ومتـاع وغير ذلك ، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السـلام (بغداد) أو إلى غيرها ، ووجه من ليلته رجاء الخادم إلى الرقة فى قبـض أموالهم وما كان لهم ، وأخذ كل ما كـان من رقيقهـم ومواليهـم وحشمهـم ، وولاة أمرهـم ، وفرق الكتـب من ليلتـه إلى جميـع العمال في نـواحـى البلـدان والأعمال بقبـض أمـوالهم وأخـذ وكلائهم ، فلما أصبح بعث بجثة جعفر بن يحيى مع شعبة الخفتاني وهرثمة بن أعين وإبراهيـم بن حميـد ، وأتبعهم عـدة من خـدمة وثقـاته ، منهـم مسرور الخادم ، إلى منزل جعفـر بن يحيى ، وكتب إلى السنـدى الحرشى بتوجيـه جيفة جعفر إلى بغداد ، ونصـب رأسه على الجسر الأوسط ، وقطع جثتـه ، وصلب كل قطعة منها على الجسر الأعلى ، والجسر الأسفل .

وكانت تلك بداية المأساة ، التى حـاقت بدولة البرامكة ، وهبطت بهم من حالق العز والمجد والسؤدد إلى مدارك الذل ، وهى أشد نكبة فى تاريخ الإسلام لما صاحبها من غموض لايزال يحير المؤرخين حتى عصرنا الحاضر .

لغز غامض :

لماذا انقلب الخليفة هارون الرشيد على البرامكة بهذه الطريقة الغادرة ؟ وماالذى جعله يعصف بهم ويصادر أموالهم ويطارد فلولهم ويمحو ذكرهم من صحائف الدولة بعد أن كانوا موضع الحظوة والمجد والسيادة منذ نشأة الدولة العباسية ؟ وما هى الجرائم التى ارتكبوها حتى ينكل بهم الرشيد تنكيلا بالغ القسوة دون أن تأخذه بهم رحمة أو شفقة ، وهو الذى تربى فى أحضانهم ، ورضع لبانهم ، وتغذى من علومهم وثقافتهم ، وهم الذين حافظوا على عرشه من أطماع أخيه الخليفة موسى الهادى عندما أزمع خلعه من ولاية العهد [! !] .

الواقع أن نكبة البرامكة من أشد ألغاز التاريخ الإسلامى غموضا وإبهاما ، ذلك أن الرشيد فعل فعلته دون أن يذكر مبرراتها وأسبابها ، والبرامكة أنفسهم تحملوا النكبة صابرين صامتين ولم يفتحوا شفاههم ليدافعوا عن أنفسهم ويقولوا شيئا ينير للمؤرخين مسببات هذه النكبة التى لا تضاهيها نكبة أخرى ، نظرا للمكانة السامية التى بلغها البرامكة فى نفوس الناس وفى سجلات العصر العباسى ، لقد أطيح بوزراء وقادة من قبلهم ومن بعدهم ، ولكن نكبة البرامكة فاقت سواها لما اتسمت به من صبغة جماعية أصابت الأسرة كلها ، وكل من يمت إليها بصلة . . الأمر الذى أصاب الناس بصدمة نفسية لاتزال أصداؤها تتردد رغم مر القرون والعصور .

لايزال الناس يتخذون من نكبة البرامكة دليلا على بشاعة حكم التسلط والطغيان . عندما تصبح كلمة الحاكم هى القانون وهى الشريعة وهى القضاء ، وعندما تصبح مصائر الناس مرهونة بإشارة من إصبعه ، فيهوى سيف « مسرور » على الرقاب ليفصلها عن أجسادها دون سؤال أو تحقيق . . ودن أن يجرؤ أحد على أن يسأل الحاكم : لماذا فعلت هذا ؟ ومن المسئول عن هذه الأرواح التى أزهقت وبأى ذنب قتلت [! !] .

لقد أحاط الظلام الدامس بهذا الحادث الجلل ، لأن القاتل والقتيل دخلا فى ذمة التاريخ دون أن يقدم أحدهما تفسيرا لما حدث ، ومعنى ذلك أن الملف لايزال مفتوحا ، والقضية لاتزال ساخنة تثير شهية كتاب التاريخ وقرائه على السواء ، فكتاب التاريخ يرون أن مجال البحث عن الأسباب يدعوهم إلى الغوص فى أحشاء الواقعة لعلهم يضعون أيديهم على مبررات معقولة ، وقراء التاريخ يتخذون منها العبرة والعظة مما حدث لأجدادهم عندما تخلوا عن مبدأ الشورى ، وتنازلوا عن حقهم فى اختيار الحاكم ومحاسبته وعقابه على آثامه ، ولايمكن أن تكون قراءة هذا الفصل الدامى من تاريخ المسلمين مدعاة للتسلية أو تزجية للفراغ ، ولكنها دعوة إلى التفكير والتدبير حتى نتحرز من الوقوع فيما وقع فيه الأسلاف ، ونرصد الواقع ونستشرف المستقبل على ضوء الماضى ، ونستنبط من الأمس ما سوف يأتى به الغد ، فنضع الضمانات التى تحفظ حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ، ونصوغ القيود التى تكبح شهوة الحكام إلى التسلط والطغيان ؟

درس مؤلم :

نكبة البرامكة درس مؤلم لابد أن يتفهمه كل من يحوم حول مراكز الصدارة ، ويسعى إلى ممارسة السلطة ، ولهذا لابد أن أبدا معك مسيرة هذه الأسرة التى أخذت غدرا بعد أن بلغت ذروة الجاه والنفوذ وارتبط تاريخها بتاريخ الدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢ هـ ، أما تاريخ البرامكة مع الإسلام فيعود إلى الفتوحات الإسلامية فى عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، الذى تم على يديه فتح إقليم خراسان موطن القومية الفارسية ، ومنه امتد الفتح إلى مدينة [بلخ] مسقط رأس البرامكة والتى تقع الآن فى بلاد الأفغان ، وكان [برمك] الجد الأكبر لهذه الأسرة الفارسية الارستقراطية يقوم على خدمة [النوبهار] وهو

بيت النار المقدس الذى أقامه المجوس على غرار الكعبة المشرفة ويأتيه المجوس من شتى الأصقاع لأداء طقوسهم ، وفى ذلك يقول ياقوت الحموى فى معجم البلدان : كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ مثل ملوك الطوائف ، وكان دينهم عبادة الأوثان ، فوصفت لهم مكة وحال الكعبة بها ، وماكانت عليه قريش ومن والاها من العرب يأتون إليها ويعظمونها ، فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام ، ونصبوا حوله الأصنام ، وزينوه بالديباج والحرير وعلقوا عليه الجواهر النفيسة .

وقد اختلف المؤرخون حول إسلام [برمك] قال بعضهم إنه رحل إلى المدينة عقب الفتح ، وأشهر إسلامه فى حضرة الخليفة عثمان وسمى نفسه «عبدالله» فلما رجع إلى مسقط رأسه أنكر أهله إسلامه وخلعوه من موقع الزعامة فقال لهم : إنى إنما دخلت فى هذا الدين اختيارا ، وعلما بفضله من غير رهبة ولم أكن لأرجع إلى دين بادى العوار ، مهتك الأسرار .

وقال آخرون إن برمك ظل على دين آبائه المجوس ، أما الذى لايختلف على إسلامه فهو ابنه «خالد» الذى أسلم وحسن إسلامه وصارت إليه زعامة هذه الأسرة العريقة ، وقد ولد خالد عام ٩٠ هـ فى عهد الدولة الأموية ، وقبل أن أمضى معك فى سرد تاريخ خالد بن برمك مع الدولة العباسية ، أرجو أن تضع فى ثنايا ذاكرتك تلك المعلومات التى ذكرناها عن تاريخ الأسرة البرمكية ودينها المجوسى ووظيفتها الدينية فى خدمة بيت النار ، لأن هذه المعلومات القديمة سوف يكون لها دور فى نكبة البرامكة فيما بعد ، وسوف يعزو بعض المؤرخين أسباب النكبة إلى هذه الرواسب المجوسية السابقة .

مواهب :

ونعود إلى خالد بن برمك وقد جاوز مرحلة الشباب لنعثر عليه عضوا نشطا فى التنظيمات السرية التى أقامها العباسيون فى خراسان تمهيدا للإطاحة بحكم

الأمويين . فلما كشف التنظيم عن وجهه تحت قيادة أبي مسلم الخراساني وجدنا خالد بن برمك مشاركا في المعارك الحربية التي دارت بين الفيالق الفارسية وفلول الجيش الأموي .

وفي تلك المعارك ظهرت مواهب خالد وبراعته وفطنته وحسن سياسته . من ذلك مايرويه الجهشياري في كتابه [الوزراء والكتاب] نقلا عن «الجاحظ» عندما كان خالد يمضي مع القائد قحطبة بن شبيب في مطاردة الجيش الأموي ، وبينه وبين الأعداء مسيرة أيام وليال ، ثم حطوا رحالهم لتناول الطعام والراحة ، فنظر خالد فرأى قطعان الظباء قد أقبلت من ناحية الصحراء ، وأخذت تتغلغل بين فصائل الجند ، فقال لقحطبة : أيها الأمير . . أعلن النفير . . وناد في الناس : « يا خيل الله اركبي » فإن العدو على مقربة من موقعنا . . وعلينا أن نعد الخيل لمواجهتهم قبل أن يدهمونا . . فقام قحطبة مذعورا ، فلم يجد غبارا أو دليلا على قرب العدو . . فقال له خالد : أيها الأمير لاتتشاغل بكلامي وأسرع بإعلان النفير . . أما ترى أقاطيع الوحوش قد أقبلت فارقت مواقعها حتى خالطت الناس ؟ إن وراءها جمعا عظيما . . واستجاب قحطبة لمشورة خالد . وما إن تأهب الجند حتى ظهرت طلائع الأعداء . . فوجدوا أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم ، ولولا نظرة خالد بن برمك وفراسته لفوجئوا بالعدو فوق رؤوسهم ، وتفهم من هذا أن خالد بن برمك كان أحد السيوف الفارسية التي قامت عليها دولة العباسيين ، وتفهم أيضا أن الرجل كان مخلصا في ولائه للعهد الجديد ، فكان على الدولة الجديدة أن تقدر له هذا البلاء الحسن . وان تفتح أمامه الطريق ليصل إلى مكان الصدارة حتى إن السفاح أول خلفاء الدولة العباسية دفع ابنته « رَيْطة» إلى خالد بن برمك حتى أرضعتها زوجته أم خالد ، وكذلك فعلت أم سلمة ـ زوجة السفاح ـ إذ أرضعت بنتا لخالد أسمها أم يحيى بلبان ابنتها ريطة .

ومعنى ذلك أن العلاقة بين البرامكة والبيت المالك العباسى لم تقتصر على شئون السياسية والحكم ، وإنما امتدت إلى أدق الروابط الإنسانية والعائلية إلى حد تبادل الرضاع ، ونفس هذا المزج سوف يتكرر عندما يولد هارون الرشيد فيرضع لبان البرامكة من ثدى أم الفضل زوجة يحيى بن خالد . بل إن الاختلاط بين أبناء الأسرتين كان عميقا إلى درجة أن « أم يحيى » بنت خالد كانت تشارك «ريطة» بنت الخليفة فى فراشها . وشهد السفاح ذلك فقال لخالد :

لقد استعبدتنى ! فوجم خالد وقال : أنا أمير المؤمنين . فقال له : كانت ريطة وأم يحيى فى فراش واحد فتكشّفتا ، فرددت عليهما اللحاف ! فقبل يده وشكر له .

نكبة الوزارة :

كان أبو سلمة الخلال أول وزير فى دولة بنى العباس ، بل أول مسئول يحمل لقب وزير فى تاريخ الإسلام ، وقد تجمعت لديه خيوط الانقلاب العباسى منذ اليوم الأول ، ولكن الرجل لم يكن أمينا لسادته العباسيين وخطر على باله أن يلعب على الحبلين ويسلم مقاليد الحكم الجديد إلى العلويين .

ولم يغفر له العباسيون هذه الخيانة فاغتالوه بعد أسابيع من توزيره ، وجاءوا بخالد بن برمك ليحل محله فى مقعد الوزارة ، ومن المؤكد أنه فرح لهذه الثقة ، ولو أحسن الظن لاعتذر حفاظا على رقبته ورقاب أبنائه ، ففى مثل هذه الأنظمة الاستبدادية يصعب بقاء الوزير فى مأمن من الاغتيال ، ولك أن تدهش إذا عرفت أن كل وزراء الدولة العباسية ماتوا اغتيالا . . وندر إن مات أحدهم على فراشه .

أصبح خالد بن برمك وزيرا فى دولة السفاح ، وبقى فى منصبه حتى جاء المنصور فأبقاه ، وأضاف إليه أعباء جديدة مثل ولاية الموصل فأحسن خالد إلى الناس ، وقهر المفسدين ، وقضى عليهم ، وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع إحسانه إليهم ، حتى قالوا عنه : ما هبنا قط أميرا هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى فيه جبرية ولكن هيبة كانت له فى صدورنا .

لم يكن من اليسير أن يبقى خالد بن برمك إلى جانب المنصور ، حائزا على ثقته ورضاه إلا إذا سار الوزير على هوى سيده ، متمشيا مع سياسته التى تقوم على الغدر والتحايل والميكيافيلية فى أجلى صورها .

كان المنصور قد جعل ولاية العهد لأحد أمراء البيت العباسى وهو عيسى ابن موسى ، ولكن المنصور خطر على باله أن يخلع ابن عمه من ولاية العهد وينقلها إلى ابنه (المهدى)ولكن كيف السبيل إلى إقناع عيسى بالتنازل عن ولاية العهد بطريقة سلمية ؟ تلك كانت مهمة خالد بن برمك . . فكان عليه أن يستخدم دهاءه لإقناع عيسى بتلبية رغبة الجبار أبو جعفر المنصور .

يروى الطبرى هذه الواقعة فى أحداث سنة ١٤٧ هـ فيقول : أراد أبو جعفر أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ويقدم عليه المهدى ، فأبى أن يجيبه إلى ذلك ، وأعيا الأمر أبو جعفر فيه ، فبعث إلى خالد بن برمك « لعل عندك حيلة فيه بعد أن أعيتنا وإياه الحيل ، وضل عنا الرأى » ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، تضم إلىّ ثلاثين رجلا من كبار الشيعة (الأنصار) مما تختاره ، قال : فركب خالد بن برمك وركبوا معه ، فساروا إلى عيسى بن موسى وأعطوه رسالة أبى جعفر المنصور ، فقال : ماكنت لأخلع نفسى وقد جعل الله عز وجل الأمر لى ، فأداره خالد بكل وجه من وجوه الحذر والطمع ، فأبى عليه ، فخرج خالد عنه وخرجت الشيعة بعده ، فقال لهم خالد : ما عندكم فى أمره ؟ قالوا : نبلغ أمير المؤمنين رسالته ونخبره بما كان منا ومنه ، قال : لا ، ولكنا

نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب ونشهد عليه إن أنكره ، قالوا له : افعل ، فإنا نفعل ، فقال لهم : هذا هو الصواب ، وأبلغ أمير المؤمنين فيما حاول وأراد . فساروا إلى المنصور وخالد معهم ، فأعلموه أنه قد أجاب فأخرج التوقيع بالبيعة للمهدى ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، قال : وأتى عيسى بن موسى لما بلغه الخبر ، أبا جعفر منكرا لما ادُّعى عليه من الإجابة إلى تقديم المهدى على نفسه ، وذكره الله فيما قد هم به ، فدعاهم المنصور ، فسألهم ، فقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب وليس له أن يرجع ، فأمضى أبو جعفر الأمر ، وشكر لخالد ماكان منه ، وكان المهدى يعرف ذلك له ، ويصف جزالة الرأى فيه .

شهادة زور :

أرأيت كيف تدار الأمور فى ظل دولة الاستبداد والطغيان (!!) أرأيت كيف تنتقل ولاية العهد عن طريق شهادة الزور . . وبالتآمر الفاضح بين خليفة مستبد ووزير يتخلى عن مقتضيات الشرف والصدق لإرضاء نزوة سيده (!!) .

لقد كانت ولاية العهد من أسباب البلاء والكوارث التى أصابت نظام الحكم الإسلامى ، وكانت من أسباب سقوط الدولة الأموية ، ومع ذلك لم يتعظ خلفاء الدولة العباسية مما جرى لأسلافهم ، ووقعوا فى نفس الشرك ، وأخذوا يستخدمون الدهاء والحيل للتلاعب فى العهود . ولسوف يتكرر نفس الموقف عندما أراد الخليفة موسى الهادى أن يخلع أخاه هارون الرشيد من ولاية العهد ويحل محله ابنه ، واستعان فى ذلك بوزيره يحيى بن خالد البرمكى الذى شغل مكان أبيه فى منصب الوزارة ، ولكن يحيى كان أشد فطنة من أبيه وأشد تحرزا من الانسياق وراء هوى الخليفة . ونصح الهادى بعدم الإقدام على هذا الفعل . . وبذلك حافظ على عرش الرشيد . ومع ذلك لم يشفع له هذا

الموقف الكريم عند الرشيد عندما ضرب ضربته البشعة . ولم يرحم شيخوخة يحيى . . وإليك تفاصيل المهزلة كما رواها الجهشيارى :

« ثم تنكر موسى الهادى لأخيه هارون الرشيد ، وعمل على خلعه ، وتقليد ابنه جعفر بن موسى ، وهو طفل ، فعزم هارون على إجابته ، فمنعه يحيى بن خالد فبذل له موسى « الهنىّ والمرىّ » من أعمال الرقة ، فقال هارون ليحيى : إذا نزلت على « الهنى والمرى » وخلوت بابنة عمى ، يعنى زبيدة أم جعفر وكان يحبها حبا جما ، فما أريد شيئا ، فقال يحيى : إنها الخلافة ، ولعل ما تقدر أنه يبقى لك ما يبقى ، ولم يزل به حتى ثبّته ، فدعا موسى يوما بيحيى ، فلما دخل عليه أكرمه ورفق به ، فقال له : أنت الذى يقول فيك القائل :

لو يمس البخيل راحة يحيى أسمحت كفه ببذل النوال

فقال له : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، وقبّل يده ورجليه ، فأمر له بإقطاع ، ووصله بعشرين ألف دينار ، ثم ناظره فى خلع هارون فقال له :

يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وجرّأتهم على حلّ العقود التى تعقد عليهم ، ولو تركت الأمر فى بيعة أخيك بحاله ، وبويع لجعفر من بعده ، كان ذلك أوكد لبيعته فقال له : صدقْتَ ونصحت ، وأنا أنظر فى هذا . . ثم صرفه ، ثم لم تطب نفسه ، فدعا بيحيى وحبسه ، فتلطف فى أن يدعو به ويخليه ، ففعل ذلك ، فلما خلا به قال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت أن كان ما نعوذ بالله منه ـ يعنى الموت ـ قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون (الرشيد) هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال : لا ، قال : فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر ، فإذا بلغنا الله ذلك ، فعلىّ أن آخذ بين هارون حتى يبايعه عفوا ، والله والله يا أمير المؤمنين ، فإنك إن فعلت هذا ، وحدث ما نعوذ منه (الموت) وثب على هذا الأمر أكابر أهلك ، وخرج الأمر عن ولد أبيك ، والله لو لم يعقد المهدى

لهارون ، لوجب أن تعقد له ، ليكون فى بنى أبيك ، فشكر منه هذا القول ، وأطلقه .

وقد يتصور القارىء أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، وأن الهادى اقتنع بما قدمه وزيره يحيى من مبررات قوامها الحكمة والتعقل ، ولكن بطانة السوء لم تهدأ حتى حركت نفس الخليفة وهى فى مرض الموت ليخلع أخاه ، ويعصف بالوزير الذى أصدقه النصح ، فدعا إليه يحيى وقال له : قد أفسدت علىّ أخى ، والله لأقتلنك !

ولكن شاء الله أن يموت الهادى فى تلك الليلة . . وينجو يحيى بن خالد من ميتة شنعاء لمجرد أنه لم يوافق الخليفة على نزوته . . وحول موت الهادى يقول صاحب (الفخرى) :

ولم تطل مدة الهادى ، فيقال : إن أمه الخيزران أمرت جواريها بقتله ، فجسلوا على وجهه حتى مات ، وسبب ذلك قد اختلف فيه ، فقيل : إن الخيزران كانت متبسطة فى دولة المهدى (زوجها) تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض ، والمواكب تغدو وتروح عند بابها . . ثم بعث لها طعاما مسموما فلم تأكل منه ثم قتلته . وقيل : بل السبب أن الهادي عزم على خلع أخيه هارون الرشيد والبيعة لابنه جعفر ، فخافت الخيزران على هارون ، وكانت تحبه ، ففعلت بالهادي ما فعلت ، والليلة التى مات فيها الهادى هى ليلة مات فيها خليفة وجلس خليفة وولد خليفة ، فالخليفة الذى مات هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد فيها هو المأمون .

ضحايا الحقد :

هل وقعت نكبة البرامكة بتدبير من حزب أعداء النجاح الذين يأكل الحقد قلوبهم على سكان القمم العالية والمناصب السامية ؟ وهل ذهب هؤلاء النجوم

الذين أضاءوا سماء المجتمع العباسي ـ في عصره الذهبي ـ ضحايا النفوس الوضيعة والقلوب التي تقطر غلاً وفسادًا . ؟ هذا احتمال كبير لأن المكانة السامقة التي بلغها البرامكة في نفوس الناس كانت كفيلة بأن تحرك ضدهم الأحقاد والضغائن ، لقد حمل البرامكة مسئولية الوزارة العباسية منذ نشأتها ، فقاموا بالمهمة على خير وجه ، كانوا مخلصين لسادتهم خلفاء بني العباس ، فلم يتآمروا ضدهم ، ولم يشتركوا في الدسائس التي كانت تحاك في الظلام ، ولم يجرؤ أعدى أعدائهم على أن يشكك في ولائهم للدولة العباسية ، وهم الذين حافظوا على عرش الرشيد حين كان وليا للعهد حتى جلس على عرض آبائه ، ووقفوا من خلفه ينفذون أوامره ونواهيه ، ولايبخلون عليه بالنصح الأمين ، فلماذا انقلب عليهم ؟

هل كان كرمهم وجودهم سببا في نكبتهم ؟ لقد بلغ البرامكة في هذه الناحية مبلغا أقرب إلى الأساطير ، حتى لاتجد لهم شبيها فيما تسمع وتقرأ من قصص الكرام ، ولذلك أحبهم الناس ، والتفوا حولهم ، وشادوا بذكرهم ، فهل كان حب الناس سببا في إثارة النقمة عليهم ؟ هذا احتمال وارد لأن في النفس الإنسانية جوانب مظلمة يسوءها أن يحظى إنسان بهذا الحب الجارف ، فتعمل على هدمه ، وتجد لذة مريضة في تحطيم الشوامخ ، ويسعدها أن ترى النجوم تهوى من عليائها إلى الحضيض .

كان البرامكة كرماء بالفطرة :

أجوادا بالسليقة ، عظماء بلا افتعال ، وفي ذلك يقول لك صاحب (الفخرى) : اعلم أن هذه الدولة ـ يعني دولة البرامكة ـ كانت غرة في جبهة الدهر ، وتاجا على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشُدَّت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر

إسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد . ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم　　　بنى برمك من رائحين وغاد

فهل كان أبو نواس يتوقع ذلك اليوم الذى سيهوى فيه البرامكة من عليائهم ويبكى فيه الناس على أيامهم ؟ ربما . . لأن البكاء على البرامكة لم ينقطع حتى والرشيد لم يزل حيا . . وكانت تبلغ مسامعه هذه البكائيات برغم القرار الذى أصدره بتحريم رثائهم ، أو الإشادة بذكرهم ، وظل بعض الناس على وفائهم للبرامكة ، ينعونهم بكلمات حارة صادقة تؤرق مضجع الرشيد ، فيسكت عنها حينا ، ويقمعها أحيانا . وفى ذلك يروى الرواة أن الشرطة ضبطت إنسانا واقفا وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة ، وهو ينشده ويبكى فقبضوا عليه وساقوه إلى الرشيد الذى بادره معنفًا : أما سمعت تحريمى لرثائهم ؟ لأفعلن بك ولأصنعنَّ ! فقال الرجل : يا أمير إن أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ، ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال : قل .

قال الرجل : إنى كنت من أصغر كتاب يحيى بن خالد وأرقهم حالا . . فقال لى يوما أريد أن تضيّفنى فى دارك يوما . فقلت : يا مولانا أنا دون ذلك ، ودارى لاتصلح لهذا . قال : لابد من ذلك . قلت : فإن كان لابد فأمهلنى مدة حتى أصلح شأنى ومنزلى ، ثم بعد ذلك أنت ورأيك . قال : كم أمهلك؟ قلت : سنة قال كثيرا . قلت : فشهوراً . . قال : نعم فمضيتُ وشرعتُ فى إصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة ، فلما تهيأت الأسباب ، أعلمت الوزير بذلك . فقال : نحن غداً عندك ، فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج إليه . فحضر الوزير فى غد ومعه ابناه جعفر والفضل ،

وقال : يا فلان أنا جائع فعجل منها ماحضر . فدخلت وأحضرت منها شيئا ، فأكـل الوزيـر ومن معه ، ثـم قام يتمشـى فى الدار وقال : يـا فلان فـرِّجنا فى دارك . فقلـت : يـا مولاى هـذه هـى دارى ليـس لى غيرها . قـال : بلى لـك غيرها . قلت : والله ما أملك سواها . فقال : هاتوا بَنّاء . فلما حضر قال له : افتح فى هذا الحائط بـابا . فمضى ليفتح . فقلت : يامـولانا ! كيف يجوز أن يُفتح بـاب إلى بيوت الجيران والله أوصى بحفـظ الجار ؟ ! قال : لا بـأس فى ذلك . ثم فُتح البـاب ، فقـام الوزير وابناه فدخلوا فيه وأنا معهـم فخرجوا منه إلى بستان حسن كثير الأشجار ، والماء يتدفق فيه ، وبه من المقاصير والمساكن ما يروق كل ناظر ، وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع . فقال : هذا المنزل وجميع ما فيه لك . فقبّلت يده ودعـوتُ له ، وتحققت فإذا هو مـن يوم حادثنـى فى معنى الدعـوة قد أرسـل واشترى الأمـلاك المجاورة لى وعمرها دارا حسنة ، ونقل إليها من كل شىء وأنا لا أعلم ، وكنت أرى العمارة فأحسبها لبعض الجيران . ثم التفت يحيى إلى ابنـه جعفر وقال له : يا بنى هذا منزل وعيـال ، فالمادة مـن أين تكـون له ؟ قـال جعفر : قـد أعطيته الضيعـة الفلانية بما فيها وسـأكتب له بذلك كتابا . والتفت إلى ابنـه الفضل وقال له : يـابنى فمـن الآن إلى أن يـدخل دخـل هـذه الضيعة مـا الـذى ينفق ؟ فقـال الفضـل : سأحمل إليـه عشرة آلاف دينار . فقـال لهما : فعجـلا له مـا قلتما . فكتب لى جعفر بالضيعة ، وحمل الفضل إلىّ المال ، فـأثريت وارتفعت حالى ، وكسبت بعـد ذلك معـه مالاً طـائلاً أنا أتقلـب فيه إلى اليـوم ، فوالله يا أمير المؤمنين ما أجـد فرصـة أتمكن فيها مـن الثناء عليهـم والدعـاء لهم إلا انتهزتها مكافـأة لهم على إحسانهم ، ولن أقـدر مكافأتـه ، فإن كنت قـاتلى على ذلك فافعل ما بدا لك .

يقول الرواة إن الرشيد بعد أن سمع القصة رق قلبه للرجل فأطلق سراحه ، وأذن للناس فى رثائهم .

أصحاب الحاجات :

هذا هو يحيى بن خالد البرمكى الذى كانت يده أندى من الغيث ، وإذا مسها البخيل تسربت إليه عدوى الكرم ، وفى هذا المعنى يقول القائل :

لو يمسُّ البخيلُ راحة يحيى أسمحت كفهُ ببذل النوال

وهو الذى كان أصحاب الحاجات يقعدون على دكان بالقرب من بيته فى انتظار مروره فى الصباح فيتوقف عندهم وقد امتلأ وجهه بالبشر والفرح لأنه سيلبى حاجاتهم ، وذات يوم خرج من بيته مبكراً فلم يجد منهم أحدا فأنشد :

وليس أخو الحاجات من بات نائما ولكن أخوها من يبيتُ على وَجَلْ

وهو الذى قال فيه مروان بن أبى حفصة :

إذا بلغتْنا العيسُ يحيى بن خالد أخذنا بحبل اليُسر وانقطع العسُر
سمت نحوه الأبصار منّا ودونه مفاوزُ تغتالُ النياق بها السَّفرُ
فإن نشكر النُّعمى التى عمّنا بها فحُقَّ علينا ما بقينا له الشكرُ

وقد ورث يحيى فضيلة الكرم والجود عن أبيه خالد الذى روى الجاحظ عن ثمامة قوله : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها إما من نتاجه أو من إنتاج غيره .

ولن استطيع أن أمضى معك فى رواية القصص التى حفلت بها كتب التاريخ عن كرم البرامكة الذى ملكوا به قلوب الناس . ولكن سأكتفى بأن أسرد عليك هذه القصة وبطلها جعفر بن يحيى . . الصديق الصدوق لهارون الرشيد . فهى لا تكشف لك ، فقط ، عن مبلغه فى الكرم والجود ، ولكنها

تكشف لك أيضا عن جرأته فى اتخاذ أخطر القرارات باسم الخليفة ، ليس فقط فيما يتعلق بشئون الدولة ، ولكن مايتعلق بأخص شئون الرشيد العائلية ، حتى إنه قام بتزويج ابنة الخليفة دون أن يستأذنه فى ذلك .

وخلاصة القصة أن جعفراً عكف على سهرة حمراء يختلى فيها بأخص أصدقائه وندمائه . . فيشربون ويطعمون ، ويتخففون من قيود الوقار فيلبسون ثيابا مصبوغة ملونة إمعانا فى العبث والفرفشة . وقبل أن يغلق باب القاعة ، تذكر جعفر أن أحد هؤلاء الندماء ـ وكان اسمه عبد الملك بن صالح ـ قد تأخر ، فأمر حاجبه بأن يأذن له بالدخول عند حضوره ، ولا يأذن لأحد سواه وتصادف أن ذهب إلى دار جعفر رجل يحمل نفس الاسم مع اختلاف فى الأخلاق والمشارب . فهو رجل ذو وقار وهيبة وحشمة وهو أحد أبناء عمومة الخليفة الرشيد . وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه ، وبذل له فى ذلك أموالا جليلة فلم يفعل ، فلما تصادف ذهابه إلى دار جعفر فى تلك الليلة التبس الأمر على الحاجب عندما سمع اسمه . فأذن له بالدخول . . وكانت مفاجأة مذهلة للرجل ، مثلما كانت مفاجأة لجعفر وندمائه فغلب الانقباض عليهم والحياء لوجود هذا الرجل الوقور بينهم ، وهم على هذه الصورة المضحكة ، وفطن جعفر أن الأمر قد اشتبه على الحاجب لتشابه الاسمين ، ورأى عبد الملك الخجل على وجه جعفر فعمل على تبسيط الموقف وأبدى رغبته فى مشاركتهم عبثهم وقال لهم : لا بأس عليكم . . احضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئا ، فأحضروا له قميصا مصبوغا فلبسه ، وجلس يباسط جعفرا ويمازحه ، وقال : اسقونا من شرابكم ، فسقوه رطلا ، فقال : أرفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا . ثم باسطهم ومازحهم ، ومازال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحياؤه ، ففرح جعفر بذلك فرحا شديداً . وقال له : سل حاجتك ؟ قال : جئت أصلحك الله ، فى ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها ، أولها أن علىَّ دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه ،

وثانيها أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره ، وثالثها أريد أن تزوج ولدى بإحدى بنات الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفء لها .

وما إن فرغ الرجل من سرد حاجاته حتى قال له جعفر : قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث ، أما المال ففى هذه الساعة يحمل إلى منزلك ، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر ، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا . . فانصرف فى أمان الله .

العجيب فى هذه القصة أن جعفرا رواها فى اليوم التالى للخليفة فأقره على كل مافعل . . بما فيها تزويج ابنته (!!) لم يعترض على أمر اتخذ فيه جعفر قرارا . .

ثقـــافتهم :

وحتى تكتمل صورة البرامكة فى عينيك ، لابد أن أعرض عليك جانباً من علمهم وأدبهم ، ودورهم فى إعلاء شأن الثقافة فى عصرهم ، سواء كانت عربية أو فارسية أو هندية أو يونانية ، فقد كانوا من سعة الأفق بحيث لم يتعصبوا لثقافة بعينها .

وفى ذلك يقول العلامة أحمد أمين فى (ضحى الإسلام) ومن الحق أن نذكر أن البرامكة ـ وهم فرس ـ لم يشجعوا الثقافة الفارسية وحدها ، بل شجعوا كل ثقافة ، فابن النديم يروى عند الكلام على كتاب (المجسطى) فى الهيئة : إن أول من عُنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد البرمكى ، ففسّره له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض ذلك ، فندب لتفسيره أبا حسان ، وسلماً ـ صاحب بيت الحكمة ـ فأتقناه ، واجتهدا فى تصحيحه ، كما أنه أمر بتفسير كتاب فى الطب ، لمنكه الهندى ، وبعث يحيى أيضاً برجل إلى الهند ليأتيه

بعقاقير موجودة فى بلادهم وأن يكتب له أديانهم ، فكتب لـه هذا الكتاب . فهؤلاء البرامكة وإن عُنوا بالثقافة الفارسية ، فقد عُنوا بجانبها كذلك بالثقافة اليونانية والهندية والعربية .

ويبدو أن يحيى بن خالد بلغ من عمق الثقافة مبلغاً جعل الجهشيارى يروى نتفاً من أقواله المأثورة التى سارت مسار الحكم : ولا بأس من أن أعرض عليك جانبا منها :

- التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة .
- الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .
- رسائل المرء فى كتبه أدل على مقدار عقله ، وأصدق شاهدا على عيبه لك ، ومعتقده فيك ، من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة .
- الكريم إذا تقرأ (أى تنسك) تواضع ، واللئيم إذا تقرأ تكبر ، والخسيس إذا أيسر تجبر .
- مطلك الغريم ، أحسن من مطلك الكريم ، لأن الغريم لا يُسلف إلا من فضل ، والكريم لا يطلب إلا من جهد .

وكان يقول : البلاغة أن تكلم كل قوم بما يفهمون .

وكان يقول : لست ترى أحداً تكبر فى إمارة إلا وقد دل على أن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحداً تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال فوق سلطانه .

وكان يقول : لو كلف الله العباد الجزع دون الصبر ، كان قد كلفهم أشد المعنيين على القلوب .

وكان يقول لكتابه : إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً . . فافعلوا .

وكان يقول : الدالة تفسد الحرمة القديمة ، وتضر بالمحبة المتأكدة .

وكان يقول : أنا مخير فى الإحسان إلى من أحسن ، ومُرتهن بالإحسان إلى من أحسنت إليه ، لأنى إذا لم أستتمّ إحسانا فقد أهدرته .

وكان يقول : ما وقع غبار موكبى على لحية رجل قط ، إلا أوجبت له على نفسى حفظه ، وألزمتها حقه .

وأوصى يحيى ابنه جعفرا فقال : يا بني انتق من كل علم شيئاً ، فإنه من جهل شيئاً عاداه ، وأنا أكره أن تكون عدواً لشىء من الأدب .

وكان يحيى إذا رأى من الخليفة الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالإنكار ، وضرب له أمثالاً ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما أنكره . ويقول : فى النهى إغراء ، وهو من الخلفاء أحرى ، فإنك وإن لم تقصد إغراءه ، إذا نهيته أغريته .

وقال الأصمعى : سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة .

وورث جعفر عن أبيه الفصاحة والبلاغة . وقد اشتهرت توقيعاته على الورق وصارت محلاً لدراسة مؤرخى الأدب ، حتى قيل إنه وقع على ألف ورقة فى يوم واحد فما وجد فيها شىء مكرر ، ولا شىء يخالف الحق . وقال ثمامة بن أشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهامًا يُغنيه عن الإعادة ، ولو فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ، كما استغنى عن الإعادة ، وفيه تقول عنان الجارية :

بديهته وفكرته سواء	إذا التبست على الناس الأمور
وصدر فيه للهم اتساع	إذا ضاقت من الهم الصدور
وأحزم ما يكون الدهر رأياً	إذا عجز المشاور والمشير

ودفع رجل إلى جعفر رقعة ذكر فيها قصده إياه بأمل طويل ، ورجاء فسيح ، فوقع على ظهرها :

هذا يمّت بحرمة الأمل ، وهى أقرب الوسائل ، وأثبت الوصائل ، فليعجّل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم ، وليمتحن ببعض الكفاية ، فإن وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقًا ، وإلى حرمته حرمة ، وإن قصر عن ذلك فعلينا مُعَوله ، وإلينا موئله ، وفى مالنا سعة له .

وكتب موقّعًا رداً على رسالة : حبّب إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبغّض الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها ، وقد رأيت غدراتها ووقعاتها عيانا وإخباراً ، والسلام .

شهداء الغرام :

. لا تخلو مأساة البرامكة من فاصل رومانسى برز وسط الفواجع الدامية مثل نغم حالم سرعان ما عصفت به يد القدر . . وجرفته النكبة إلى أتونها ، ولم تبق منه سوى ذكرى حزينة ماثلة فى القلوب ، تخلب الألباب ، وتثير العواطف ، وتستدر الدموع . . لأن الناس فى كل زمان يبكون شهداء الغرام الذين عجزوا عن تحقيق أحلامهم . . وراحوا ضحية قوى عاتية أكبر منهم ، ولا يزال الناس يتعاطفون مع قيس وليلى ، وروميو وجولييت ، وغيرهم من عشرات العشاق الذين أحرقتهم نار التقاليد والعادات الصارمة أو الظروف السياسية التى لا تقيم وزنا للحب والعواطف .

وكانت قصة (العباسة) أخت الخليفة هارون الرشيد ، مع وزيره جعفر البرمكى من نماذج الغرام الذى نشأ وترعرع فى أحضان السياسة وقصور الحكم ، وتحت رعاية الخليفة نفسه ، ثم دارت الأيام وتغيرت الظروف وتقلبت

الأحوال ، وصارت قصة العباسة وجعفر سببا من أسباب النكبة التى حاقت بالبرامكة ، وإذا كانت فواجع الحب التاريخية قد انتهت بالقضاء على أبطالها وحدهم ، فإن قصة العباسة وجعفر قضت على مصير أسرة بأكملها ، وأتت نيرانها على بيوتهم من عروشها ، وكانت سببا فى زوال دولة احتلت فى التاريخ مكانا ساميا . . هى دولة البرامكة .

القصة مغرقة فى الرومانسية ، ولولا أن مؤرخى الإسلام الأوائل سجلوها وعرضوها عرضا وافيا لقلنا إنها من وحى الخيال ، أو من ابتداع مؤلف من كتاب الأدب الرومانسى الذى انتشر فى أوروبا فى العصور الحديثة ، وقد اكتملت للقصة كل أركان الإثارة والتشويق والنمو الدرامى . . فنحن أمام أبطال ليسوا من أخلاط الناس ، بل من قمة الهرم الاجتماعى فى العصر العباسى الأول ، والأحداث تنمو فى تطور طبيعى يتناغم مع ظروف الزمان والمكان . والأبطال يتحركون وفق إرادتهم دون إدراك لما يخبئه لهم القدر إلى أن تصل الأحداث إلى قمة الفاجعة . . تماما كما كان يحدث فى المآسى الإغريقية . .

مصاهرة :

بطلة المأساة (العباسة) بنت الخليفة المهدى ، وأخت الخليفة هارون الرشيد ، وسليلة البيت العباسى الهاشمى الذى يحكم دولة الإسلام العالمية من حدود الصين إلى ساحل المحيط الأطلسى ، والذى تحكمه تقاليد صارمة فى أمور الزواج والمصاهرة .

فهو لا يسمح بحال من الأحوال بمصاهرة بيت يقل فى المنزلة والشرف عن مكانة البيت المالك ، ولا يقبل لإحدى بناته أن تتزوج رجلا يفتقر إلى هذا

الشرف حتى لو كان الرجل وزيرا ونديما وخليلا لخليفة المسلمين فهو فى النهاية من الموالى الفرس الذين هزمهم الإسلام ، ورغم خدماتهم الجليلة للدولة العباسية إلا أنهم لا يستطيعون الوصول إلى قمة الهرم الذى يتربع عليه البيت العباسى وأشياعه من قبائل العرب . فما بالك إذا خطر على بالهم أن ينتسبوا إلى هذا البيت الشريف عن طريق المصاهرة «!!» لقد سبق أن طاف هذا الخاطر بعقل القائد الفارسى الشهير أبى مسلم الخراسانى ـ وما أدراك من أبو مسلم الذى قامت الدولة العباسية على قائم سيفه ـ وما كانت لتقوم لولا شجاعته وفطنته وإخلاصه وتضحياته من أجل الهدف الذى عاش من أجله ، وهو القضاء على الدولة الأموية وإظهار الدولة العباسية .

لقد ظن الرجل ـ وقد أبلى هذا البلاء الحسن من أجل الدولة ، وبعد أن أصبح النظام الجديد حقيقة ماثلة بفضله ـ أنه يحظى بشرف مصاهرة الأسرة العباسية ، وكان حسن الظن لدرجة أنه تقدم لخطبة إحدى عقيلات البيت المالك ، هى أمينة بنت على بن عبد الله بن العباس . وما إن علم الخليفة المنصور بهذا الطلب حتى استشاط غضبا ، وثارت فى نفسه نار البغضاء والحقد على هذا المولى الذى جنح به الخيال إلى حد التطاول والجرأة على مصاهرة الأسياد ، وطلب زواج عمة الخليفة «!!» وأسرها المنصور فى نفسه . . حتى وقع أبو مسلم فى يده وكانت هذه « الجريمة » أحد الذنوب التى جعلها المنصور مبررا لإعدامه «!!» .

ولكننا نعيش الآن فى عصر الرشيد ـ حفيد المنصور ـ وزوج زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، وقد صار المجتمع العباسى إلى حالة من الانفراج تختلف عما كانت عليه فى عهد المنصور من تزمت وضيق . فهل كان الرشيد أكثر تساهلا من جده ، فلا يسمح لهذه التقاليد الصارمة بأن تقف فى طريق العاطفة التى تربط بين قلبين عاشقين بصرف النظر عن الفوارق الطبقية ؟

وكذلـك فإن المحبين فى غمـرة العواطـف الجياشـة يضعون على عيـونهم أقنعة صماء لا ترى شيئـا مما يحيط بهم ، لأن كـل ما يعنيهـم هو إشباع العـواطف ، والاستجابة إلى نداء القلـب على حساب صوت العقل ولذلك يـدفعون الثمن غاليا . .

● ولقد دفعت العباسة الثمن من نفسها ومن أولادها . .

● ودفع جعفـر الثمن مـن نفسه ، وجـر وراءه أباه وإخـوته وكـل أبناء البيـت البرمكى وكل مـن يلوذ بهم ، وراحوا جميعا وقودا لتلك المحـرقة المدمرة التى أقامها لهم الرشيد .

مزاج الرشيد :

والقصة كما تناقلتها كتب التاريخ بسيطـة فى عناصرها . . فالخليفة الرشيد كان يحب أخته حبـا جما . . ولا يستطيع الافتراق عنها ساعة . . فهى ظريفة لطيفة تستطيـع أن تستحوذ على اهتمامه بحـديثها العذب ، وروحهـا المرحة ، وهـو فى نفس الـوقـت يحب صديقـه «جعفـر» بنفـس القوة ، ولا يقـدر على مفارقته . .

لأن جعفرا كان يحمل مـن الظرف والتبسط ما يوافق مـزاج الرشيد . . على عكس أخيـه الفضل فقد كان أميـل إلى الجد والوقار . . فهـو لا يشرب الخمر ويقول : « لـو علمت أن الماء ينقـص من مروءتـى لما شربته » . . ومثـل هذا التزمت لم يكن يـوافق ميل الرشيد إلى الفرفشة والـزقططة . . ورغـم أن الفضـل كان أخا للـرشيد فى الرضاعـة إلا أن اختلاف الطباع باعـد بينهما . . حتى إن الرشيـد طلب من أبيهما يحيى بـن خالد أن يسحب خـاتم الدولة مـن الفضـل ويعطيه لجعفـر . فأذعـن الفضل وقال : « قـد سمعت مقـالة أمير المؤمنين فى

أخي وأطعت وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبه طلعت عليه » . وهى كلمة تكشف عن معدن قوى ، وروح سمحاء وعقل راجح ، وبصيرة بأخلاق الملوك ، ولذلك نأى بنفسه عن أن يشارك الرشيد فى سهراته وخلوته ونزواته ، وظل محافظا على أن يكون رجل دولة ـ وبس ـ أما جعفر فقد استهواه حب الرشيد ، وجرفته عاطفته الحادة حتى نسى نفسه ، أو أنساه الشيطان قدر نفسه فوقع فى الحفرة التى لا منجاة منها .

لقد تكون من هذا الثلاثى المرح ـ الرشيد والعباسة وجعفر ـ فريق متماسك تجمع بينه العاطفة والألفة والحب ، وصارت سمعة الفريق حديث قصر الخلد ، بل حديث بغداد كلها ، وصار الناس يتناقلون أخبارهم ونوادرهم بشيء من النقد اللاذع ، إذ كيف يسمح خليفة المسلمين لأخته بمجالسة رجل غريب لا يربطه بها عقد أو عهد . . ووصلت الأقاويل إلى أسماع الرشيد فقال : بسيطة . . نجمع بينهما بما لا يخالف الشرع حتى يطمئن الناس « ! ! » وتفتق ذهن الخليفة عن حل هو أقرب إلى الحيلة . . ظاهره احترام الشرع ، وباطنه الخديعة والكذب . . فقال لأخته العباسة ولأخيه جعفر : تعرفان أننى لا أستطيع فراقكما . . كذلك لا أستطيع مخالفة الشرع . . وسأعقد بينكما عقدا شرعيا . . وما إن سمع الاثنان بهذا الاقتراح حتى ارتفع صوتاهما بالفرحة . . ونهضا يقبلان الرشيد ويدعوان له بطول العمر . . فقد آن الأوان لكى يجمع بينهما عش الزوجية بعد أن طال بهما العهد فى حب صامت مكبوت . . ولكن الفرحة لم تتم . . فقد عاجلهما الرشيد بقوله : ولكن لا يكون بينكما ما يكون بين الرجل وحرمه « ! ! » .

كــآبــة :

وقعت العبارة الأخيرة على العباسة وجعفر وقع الصاعقة . . وذابت الفرحة

على وجهيهما . . وحلت محلها مسحة من الكآبة . . ولكنهما لم يظهرا مافى نفسيهما من لوعة . . وتقبلا القرار صامتين .

ومرت الأيام . . والثلاثة يجتمعون على هذه الحال . . يسهرون ويسكرون ويسمرون ، فإذا حان موعد الفراق عاد كل منهم إلى مخدعه . . ولكن . . هل كان من الممكن أن يستمر هذا الزواج الصورى بين عاشقين يود كل منهما أن تكتمل سعادته تطبيقا لما نصت عليه بنود العقد ؟ ! .

كان من المحال أن يبقى الحال على ماهو عليه . . وكان لابد من إنهاء هذه اللعبة الخطرة التى أراد بها الرشيد التحايل على الشريعة ، وحرمان المحبين من الحق الذى كفلته الشريعة والطبيعة معا . . ولكن من الذى يبدأ ؟

العباسة ؟ أم جعفر ؟

فى مثل هذه المواقف الحاسمة تكون المرأة أشجع من الرجل فى التصرف واتخاذ القرار . . ولقد قررت العباسة أن تمضى إلى غايتها حتى لو غضب أخوها الخليفة . . وحتى لو رفض «زوجها» جعفر . . كانت تعرف أن جعفرا أجبن من أن يغضب الرشيد ، ويخرج على طاعته . . إذن لابد من التحايل وإجبار الرجلين على النزول على إرادتها . . ألم يصف القرآن الكريم كيد المرأة بأنه عظيم . . وإن كيد الشيطان كان ضعيفا «!!» لقد أعيتها كل الحيل فى إقناع جعفر بحقها فى اللقاء به كما يلتقى كل الأزواج . . ولكنه كان يرفض وينأى بجانبه . . إذن لا مفر من الحيلة . . فذهبت إلى أمه «عتابة» وطلبت منها أن تقدمها إليه تحت جنح الظلام على أنها جارية . . وكان من عادة «عتابة» أن تقدم إلى ابنها جارية عذراء كل ليلة خميس . . ولابأس عليها أن تقدمها له ـ وهو فى نشوة السكر ـ على أنها جارية الأسبوع . . ولكن الأم خافت على ولدها من بطش الرشيد إذا علم . . فطمأنتها العباسة واستخدمت معها كل أساليب الإغراء والتهديد . . حتى قبلت . . وفى الليلة الموعودة . . تسللت

العباسة إلى مخدع جعفر دون أن يتبين ملامحها وهو يظنها جارية . . وتم بينهما اللقاء . . وبعد أن أفاق جعفر من نشوته قالت له العباسة :

كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟

قال : ماذا تقصدين . . وأى بنات الملوك أنت ؟!

قالت : أنا مولاتك وزوجتك العباسة وأضاءت سراجا بدو ظلام الغرفة !!

ذعر جعفر ونهض من فراشه كمن لسعته عقرب ، وهرع إلى أمه وهو يصيح : لقد بعتنى والله رخيصا . . !!

وتحقق للعباسة ما أرادت . . وتكرر لقاء الزوجين فى السر . . وأثمرت العلاقة بينهما طفلين . . وحين خافت العباسة على ولديها من بطش الرشيد بعثت بهما إلى مكة المكرمة ليعيشا فى كنف البيت الحرام ومعهما من الخدم والحشم والمال ما يكفل لهما حياة كريمة .

كشف السر :

لم يكن من المعقول أن تستمر الأحداث فى طريقها دون علم الرشيد ، ففى مجتمع مثل المجتمع العباسى كان من الصعب الاحتفاظ بأسرار حدث جلل مثل زواج العباسة من جعفر . . وتدخلت عوامل التآمر والسعاية لتضع القصة بكاملها أمام الرشيد . .

وكانت الواشية زوجته زبيدة التى ساءها أن يصل البرامكة إلى ماوصلوا إليه من سؤدد . . فدخلت إليه لتلقى بظلال التهم والشكوك على يحيى بن خالد ـ والد جعفر ـ ورأس الأسرة البرمكية ، ولكن الرشيد دافع عن وزيره يحيى وقال لها : إنه ليس محلا للشك ، عندئذ ضربت (زبيدة) بسهمها الأخير وقالت

له : لو كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه ! بهت الرشيد وسألها : وماذاك ؟ فألقت إليه بتفاصيل قصة جعفر مع العباسة . بهت الرشيد من المفاجأة وسألها عن الدليل ، فقالت : أى دليل أدل من الولد ؛ قال : وأين الولد ؟ قالت : فى مكة . . وأردفت : ما فى قصرك جارية إلا وقد علمت به . .

وتلقى الرشيد الصدمة العنيفة مذهولا ، واتخذ قراره الخطير بالانتقام من أخته ومن جعفر ومن ذريتهما . . وإليك نهاية المأساة كما رواها الاتليدى فى كتابه (أعلام الناس) :

« لما علم الرشيد أن جعفرا قد خانه فى أخته نادى خادمه مسرورا وقال له : يا مسرور إذا كان الليلة بعد العتمة فأتنى بعشرة من الفعلة أجلادا ومعهم خادمان ، قال : نعم . فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلة والخادمان ، فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التى فيها أخته العباسة ، فنظر إليها وهى حامل ، فلم يكلمها فى شىء ، ولم يعاتبها على ما فعلت ، وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليها وثيابها كما هى ، وقفل عليها فلما علم أنه استوثق بها دعا بالفعلة ومعهم المعاول والزنابيل ، فحفروا وسط تلك المقصورة حتى بلغوا الماء وهو قاعد على كرسى ، ثم قال : حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه فى تلك الحفرة ، ثم قال : ردوا التراب عليه ، ففعلوا وسووا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وقفل الباب ، وأخذ المفتاح معه وجلس فى موضعه والفعلة والخادمان بين يديه ، ثم قال يا مسرور . . يا مسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم ، فأخذهم مسرور وجعلهم فى جواليف (أجولة) وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى نهر الدجلة .

نهاية المأساة :

وهكذا انتهت حياة العباسة فى حفرة ومعها حليها وثيابها ، كما انتهت حياة الفعلة الذين واروها التراب. وهى عادة قديمة يلجأ إليهـا الطغاة لمسح كل أثر لجرائمهم. وانتهت حياة العباسة كما انتهت حياة جعفر على يد السياف مسرور.

أما عن مصير الطفلين فيروى الاتليدى أنه بعد مقتل البرامكة أحضر الرشيد من مكة ولدى جعفر من أخته ، فلما رآهما أعجب بهما وكانا فى نهاية من الحسن والجمال ، فاستنطقهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية ، وفى ألفاظهما عذوبة وبلاغة ، فقال لكبيرهما : ما اسمك ياقرة عينى ؟ فقال : الحسن .

وقال للصغير : وما اسمك يا حبيبى ؟ قال : الحسين . فنظر إليهما وبكى بكاء شديدا ، ثم قال : يعز علىّ حسنكما وجمالكما لا رحم الله من ظلمكما ، ولم يدريا ما يراد بهما . . ثم دعا مسرورا وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما .

قبل أن تنتهى من قراءة هذه المأساة ، تقتضينى الأمانة أن أقول لك إن بعض المؤرخين المتأخرين والمحدثين يرفضون تصديق هذه القصة ، ويستبعدون وقوعها ، ويطعنون فيها . . ومنهم المؤرخ ابن خلدون ، ولكنه لايبنى طعنه على أسس موضوعية ، ولكن على اعتبارات عاطفية أشبه بالخطب . فهو يستبعد زواج العباسة : « لأنها بنت محمد المهدى بن عبد الله ابن جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبى ﷺ ابنة خليفة أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف إذا

ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا أفقدا من بيتها ، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم يملكه جده من الفرس ، أو بولاء جدها وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على عظم آبائه ، ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها ، وفي سلطان قومها واستنكره ولجَّ في تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد منهم ! .

تلك وجهة نظر لا بأس من الاطلاع عليها حتى لو اختلفنا معها .

أولاد الأفاعي :

سردت عليك قصة العباسة أخت الخليفة هارون الرشيد مع الوزير المدلل جعفر بن يحيى البرمكي ، وكيف تطورت العلاقة العاطفية بين هذا الثلاثي العجيب تطورا دفع الرشيد إلى تزويج أخته من وزيره زواجا صوريا ، ثم انقلب إلى زواج فعلى أثمر طفلين ، دون علم الخليفة . فلما انكشف المستور كانت الفاجعة التي أودت برأس جعفر ودفن العباسة حية . وقتل ولديها . وقلت لك إن المؤرخين الأوائل من أمثال الطبري وابن كثير والمسعودي سجلوا هذه الحادثة ضمن تفسيراتهم لأسباب نكبة البرامكة . ومع ذلك فإن ابن خلدون ومعه بعض المؤرخين المحدثين يشككون في صحتها دون أن يقدموا أسانيد منطقية لرفضهم لها ، فهم فقط يستبعدون ان يسمح الرشيد بزواج أخته - سليلة الشرف والحسب والنسب - من وزير صعلوك لا يرقى إلى مستوى البيت العباسي ، ثم يمضي هؤلاء الرافضون في الاستدلال على وجهة نظرهم ، بأنه لو صح أن جعفرا خان العهد الذي قطعه على نفسه بعدم الاقتراب من زوجته العباسة ، فإن الجزاء كان ينبغي أن يقع عليه وحده ولا يمتد إلى غيره من

أفراد الاسرة البرمكية ، ولكن الطامة عمت الجميع فلم يفلت منهم أحد ، وكان التنكيل من القسوة بحيث شمل الحبس والضرب ومصادرة الأموال والضياع والعبيد ، مما يوحى بأن هدف النكبة لم يكن عقوبة فرد ، بل تصفية أكبر مراكز القوى فى العصر العباسى ، والإطاحة بالمجد الذى حققته الأسرة البرمكية منذ نشوء الدولة .

من نقطة الرفض لقصة العباسة وجعفر ، كان على هؤلاء المؤرخين أن ينطلقوا فى البحث عن مبررات أكثر إقناعا من « خيانة » فرد مارس حقوقه الشرعية مع زوجته . فهو لم يرتكب إثما يبرر الإعدام (!!) . ويرى هؤلاء المؤرخون أن نكبة البرامكة لا تستوجب البحث والتنقيب عن أسبابها ، لأن مثل هذه التصفيات الجسدية هى نتيجة طبيعية للحكم الاستبدادى الذى يأبى على وزير أو كبير أن يشاركه السلطان . وإن على الحاكم أن يحرص على قطع الرؤوس التى تعلو فوق المستوى المسموح به ـ أيا كانت الخدمات التى أداها هؤلاء الوزراء للدولة ـ وبناء على هذا القانون غير المكتوب فإن ما جرى للبرامكة ليس بدعة ، وإنما سبقتها تصفيات بشعة منذ اليوم الأول لقيام الدولة العباسية ، فأول الخلفاء ـ السفاح ـ قتل أول الوزراء أبا سلمة الخلال الذى يرجع له الفضل فى نقل الشرعية من دولة الأمويين البائدة إلى دولة العباسيين الوليدة ، وثانى الخلفاء ـ المنصور ـ صاحب سجل حافل فى تصفية كل القادة والوزراء الذين ساعدوا على قيام الدولة حتى لا يكون لأحدهم فضل ، وإيمانا منه بأن السيفين لا يجتمعان فى جراب واحد ، ومضى فى تبرير وحدانيته من تفسير مغلوط للآية القرآنية الكريمة التى تقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » واتخذ من هذا التفسير الملتوى مبررا لقتل أبى مسلم الخراسانى قبل أن تجف دماء سيفه الذى قامت عليه الدولة ، ولم يكتف بقتل وزيره المقرب أبى أيوب الموريانى ، وإنما قتل معه أولاده وأقاربه ، ولم يتورع عن قتل عمه عبد الله بن على ، عندما لمس منه رائحة التطلع إلى المشاركة فى الحكم ، رغم

الدور البطولى الـذى قام به العم فى نصرة الـدولة الناشئة . والخليفـة الثالـث ـ المهدى ـ أطاح برأس وزيريه معاوية بن يسار ، ويعقوب بن داود دون ذنب ، والخليفة الرابع ـ الهادى ـ قدم لوزيره الربيـع بن يونس قدحا فيه عسل مسموم تجرعه فمات لساعتـه ، فإذا جاء الخليفة الخامس ـ هارون الرشيـد ـ وسار على نهج أسلافه ونكل بوزرائه البرامكة ، فأى غرابة فى ذلك ؟ ولماذا نرهق عقولنا فى البحـث عـن مبررات لتصرفات نظـام حكـم يقتـل بـالشبهة ، وتتحكـم فيـه الوشايات والسعايات والدسائس (١١)

كيف أفلتوا ؟

لقد أعجبنى تحليـل الدكتور أحمد شلبى إذ يقـول : إن السؤال لا ينبغى أن يكون : لماذا أوقع الرشيد بالبرامكـة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من السفـاح ؟ ونجوا من سيف المنصـور ؟ وشدة المهدى ؟ ولماذا غفـل عنهم الرشيد سبعة عشر عاما وهو السريع التغير ، الحاد المزاج ؟

وإذا كان السـؤال : لماذا برزت نكبة البرامكة وفـاقت فى الشهرة سواهـا من النكبـات والمؤامرات ؟ فـإن الجواب هـو : إن شهرة الـرشيـد التى سـارت بها الركبـان ، أخذت معها شهـرة هذه النكبة ، ولـولا ما أتيـح للرشيد مـن شهرة عالمية لم تتح لسـواه ، وصيت ذائع لم يتوفر لغيره ، لظلت نكبة البرامكـة حدثا عاديا محدود الانتشار .

علينا إذن أن ننظـر إلى نكبة البرامكـة فى إطار العصر الـذى وقعت فيـه ، ونتلمس أسبـابها فى طبيعة الحكم المطلق الـذى سار عليه الخلفـاء الأوائل من بنى العباس . وإذا كـان ابن خلدون يرى أن نكبـة البرامكة كانت نـاشئة عن استبدادهـم على الدولة ، واحتجانهم الأمـوال ، حتى إنهم غلبوا الـرشيد على

أمره وشاركوه فى سلطانه ، حتى انصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب (. . .) فإن المؤرخ المصرى الشيخ محمد الخضرى بك يعزو الاستبداد إلى الخليفة نفسه وليس إلى وزرائه ، حيث الحاكم يجب أن يكون صاحب السلطان الذى لايشارك ، والحول الذى لا يقاوم ، واليد الطولى التى لا تضارعها يد ، وكبار الرجال الذين يعينونهم ، ويقومون بتأييد سلطانهم ، كثير منهم لا يقف عند حد فى الانتفاع بتلك السابقة لهم ، فلايزالون يرتفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه ، واشتداد وطأتهم ، وعلو أيديهم ، فتدخل الغيرة فى قلوب أولئك الخلفاء ، والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال ، فلاتزال معايبهم تتجسم ، وهفواتهم الصغيرة تعظم ، وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذى لا ينبو فى الخطوب ، إشفاقا من هذا السيف أن ينقلب عليه فيقتنص منه ملكه الذى دونه كل شىء ، وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة ، بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه ، إلا قليلا من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان ، وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر ، لأنهم يتغلبون على ما فى طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد فى العظمة والتكاثر فى الأموال .

هذا منظور جديد يمكن أن نرى من خلاله أسباب نكبة البرامكة ، فالرشيد ، مهما بلغ حبه لهؤلاء الأعوان الذين صانوا له عرشه من الضياع ، لايقبل أن يتفوقوا عليه فى الشهرة والمجد ، ولا يرضى بأن ينازعوه حب الناس . وقد سبق أن سردت عليك جانبا من مكارم البرامكة وما فطروا عليه من صفات جليلة جلبت لهم حب الناس ، فلا غرابة أن تجلب عليهم نقمة الخليفة .

ولعل فى هذه القصة التى يرويها الجهشيارى فى كتابه (الوزراء والكتاب) ما يعطيك فكرة عن الحالة النفسية التى أدت إلى تغير الرشيد ضد البرامكة .

والقصة يرويها الطبيب بختيشوع بن جبريل عن أبيه ـ وكان محبا للبرامكة ـ وكان فى نفس الوقت طبيبا خاصا للرشيد : « دخلت على الرشيد يوما وهو جالس على بساط فى قصر الخلد وأم جعفر زوج الرشيد خلف الستر ، فإذا بصيحة عظيمة ، فسأل عنها فقيل له : يحيى بن خالد البرمكى ينظر فى أمور المتظلمين ، فقال الرشيد : بارك الله فيه وأحسن جزاءه ، فقد خفف عنى ، وحمل الثقل دونى ، وناب منابى ، وذكره بجميل ، ففعلت مثل ذلك أم جعفر، ولم تدع شيئا يذكره أحد من جميل إلا ذكرته به ، فامتلأت سرورا ، وقلت فى ذلك ما أمكننى ، وخرجت مبادرا إلى يحيى بن خالد ، فخبرته بذلك، فسر به ، ثم مضت مدة ، وذهبت إلى الرشيد يوما ، فوجدته جالسا فى ذلك المجلس بعينه ، وأم جعفر من وراء الستر أيضا ، و« الفضل بن الربيع » بين يديه ، وإنى لفى ذلك إذ ارتفعت ضجة شديدة ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ فقيل : يحيى بن خالد ينظر فى أمور المتظلمين ، فقال : فعل الله به وفعل ! يذمه ويسبه ، استبد بالأمور دونى ، وأمضاها على غير رأيى ، وعمل بما يريده دون إرادتى ! وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وسبته بأكثر ما يسب به أحد . فورد على من ذلك ما أقام وأقعد ، ثم أقبل على الرشيد فقال لى : يا جبريل . . إنه لم يسمع كلامى غيرك وغير « الفضل بن الربيع » ، وليس الفضل ممن يحكى شيئا منه ، وعلى وعلى لئن تجاوزك لأتلفن نفسك ، قال جبريل : فتبرأت عنده من ذكره ، وأكبرت الإقدام على حكاية شيء منه ، ومما يجرى فى مجلسه ، وانصرفت ، فلم أجسر ، وقلت : والله إن تلفت نفسى فى الوفاء لم أبال ، وصرت إلى يحيى فعرفته ما جرى ، فتذاكر ما جرى فى المرة السابقة من حيث الحمد والثناء وقال : إنه لم يكن منى فى هذه الحال التى ذمنى فيها شيء لم يكن منى فى ذلك الوقت الذى أحمدنى فيه ، ولكن المدة إذا آذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوىء ، ومن أراد أن يتجنى قدر. نسأله حسن الاختيار » .

وشايات :

ما الذى جعل الرشيد يتغير وينقلب على البرامكة بعد أن كانوا فى حظوة لم يبلغها أحد ؟

لا ينبغى أن نتجاهل أثر الوشايات والدسائس التى نسجها خصوم البرامكة من أجل الإيقاع بهم ، والقضاء عليهم ، والاستيلاء على مواقعهم السامية فى الدولة العباسية . كانت الدسائس والوشايات من معالم نظام الحكم العباسى .

ولايخلو منها نظام يقوم على حكم الفرد والطغيان . لأن الوصول إلى السلطة مرهون بإرادة الحاكم ، ومن سمات الحاكم المستبد أن يفتح أذنه لسماع كل ما يتردد وراء الكواليس وفى خبايا القصور ، وعلى ألسنة العبيد والجوارى . . ولاشك أن المكانة الرفيعة التى بلغها البرامكة كانت كفيلة بأن تثير عليها الأحقاد والضغائن ، وأن تشعل نار الغيرة عند أصحاب النفوس الوضيعة المنطوية على الشر والفساد ، وما أكثر الخصوم الذين كانوا يتربصون بالبرامكة ، ويتحينون الفرصة للإيقاع بهم وزوال مجدهم ، ويقف على رأس هؤلاء جميعا رجل ورد اسمه فى القصة التى رواها الطبيب جبريل ، وكان شاهدا على التغير الذى طرأ على الرشيد من ناحية البرامكة . هذا الرجل اسمه الفضل بن الربيع . وأرجو ألا تنسى هذا الاسم أبدا وتضعه فى سجل الأشرار أبناء الافاعى الذين تطيب نفوسهم لسماع بلاء يصيب إنسانا ، وترقص روحهم طربا وهم يرون إنسانا يسقط من علياء النعمة إلى حضيض الفقر والحاجة . هذا الرجل هو الذى أدار الرحى التى قضت على البرامكة ، وهو الذى نسج الوشايات والدسائس والسعايات وصب فى أذن الرشيد كل السموم التى أوغرت صدره ضدهم ، ويمكنك أن تصفه ـ بالتعبير المصرى ـ بأنه محراك الشر الذى استخدم كل أساليب الدهاء والخسة والنذالة لكى يفسد العلاقة

بين الرشيد والبرامكة حتى تم لـه ما أراد ، ونجح فى الإطاحة بالبرامكة ، واحتل مكانهم فى الوزارة ، ولكنه لم يبلغ مبلغهم فى العظم والجلال ، وظل يواصل حرفته فى الدس حتى أشعل تلك الحرب الأهلية بسبب الصراع على الخلافة بين الأخوين : الأمين والمأمون ، وهى الحرب التى اكتوى المسلمون بنارها ، وتسببت فى مصرع الآلاف من البشر وتبديد الملايين من أموال المسلمين . . كل ذلك من أجل أن يشفى هذا الرجل هوايته الدنيئة فى الدس والوقيعة .

ثمن النبوغ :

وقبل أن أسرد عليك تفاصيل المؤامرة الكبرى التى نسجها الفضل بن الربيع ضد البرامكة ، سوف أعرض عليك جانبا من أقوال المؤرخين فيه : يقول ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » : كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بالبرامكة ومعارضتهم ، ولم يكن لديه من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان فى نفسه إحن وشحناء .

وينقل ابن خلكان رواية عن عبيد الله بن سليمان بن وهب : إذا أراد الله هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسبابا ، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع ، وسعى الفضل بهم ، وتمكنه من المجالسة مع الرشيد ، فأوغر قلبه عليهم ، ومالأه على ذلك كاتبهم إسماعيل بن صبيح - وكان جاسوسا للفضل على البرامكة - حتى كان ما كان . وأشار أبو نواس إلى دور الفضل بن الربيع فى نكبة البرامكة فقال :

ما رعى الدهر آل برمك لما ... أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع عهدا ليحيى ... غير راع زمام آل الربيع

وبينما كان البرامكة مشغولين بهموم الدولة ، وعظائم الأمور فيها ، كان الفضل بن الربيع يدس عليهم ، ويشى بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم ، وقد انتبه ابن خلدون لذلك فقال : إنه بسبب نبوغ البرامكة ، وبعد صيتهم ، كشفت لهم وجوه المنافسة والحقد ، ودبت إلى مهادهم الوثير عقارب السعاية ، وقد تولى كِبْر هذا الأمر الفضل بن الربيع ، وأشياع الفضل بن الربيع ، الذين كانوا يختفون خلف الأسباب التى قيل إنها سبب النكبة فأخذوا يعظمون صغيرها ، ويبرزون خفيها لدى ولى الأمر . وإليك بعض التفاصيل التى يرويها الدكتور أحمد شلبى :

فى أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة ، ولم يكن للفضل بن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران أم الرشيد صاحبة الأمر والنهى فى الدولة ـ تعمل على إبعاده عن القصر ، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يئس الفضل من استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب إلى الرشيد عن طريق زبيدة ، فوثق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال ، ولكن زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلى النفوذ فى حياة الخيزران ، ومن ثم لم ينل الفضل شيئا يذكر من نباهة الذكر إلى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣هـ . يقول ابن الأثير فى ذلك « إنه لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها فى مقابر قريش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم للفضل بن الربيع وأخذه من جعفر بن يحيى ، ويضيف : إن الرشيد قال لابن الربيع : وحق المهدى ، إنى كنت لأهم لك بالشىء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر .

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدما ، وأقوى مركزا من أن يزحزحهم الفضل بيسر ، أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثم احتاج إلى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل إلى بغيته ، وكان فى حيله

واتتهاره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ، فكما كان الربيع والد الفضل يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبى أيوب المورياني عينا له على أبى أيوب ، كذلك اتخذ الفضل ، إسماعيل بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم ، وكما كان الأب يستعين بالقشيرى عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلى بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة ، وأوعز إليه أن يشى لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسه الرشيد ثم أطلقه .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ويدرك مكانتها لديه ، فعرفها الفضل أن من حقها أن تأمر وتنهى فى القصر كما كانت الخيزران تفعل فى حياة زوجها ، وإنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدت ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى وجعفر إلى العهد للمأمون ، وشددا الأيمان فى الكعبة على الأمين بالوفاء لأخيه ، فاتخذ الفضل من هذا فرصة ، ليغرى زبيدة بهذين وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله بن سليمان بن وهب فيقول : إن من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم فى الفضل بن الربيع ، ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلل يحيى فى كل رقعة بعلة ولم يوقع فى شىء منها ، فاضطرب الفضل غيظا وخرج وهو يقول :

ومتى وعسى يثنى الزمان عنانه	بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائف	وتحدث من بعد الأمور أمور

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يجيء السوء ، فأخذ يستر المحاسن ويظهر القبائح ، كما يقول ابن خلكان ، وكان من نتيجة وشاية الفضل بن الربيع أن بدت من الرشيد مظاهر فتور تجاه البرامكة .

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع لوشايته و إفساده ما بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف بذلك ، بل استمر يدس للبرامكة لدى الرشيد ، واستطاع أن يدق على وتر حساس هيج الرشيد وأثار حفيظته ، فأذاع أن البرامكة ملاحدة وثنيون يحنون إلى دين أجدادهم ، وأنهم يؤيدون العلويين سرا ، ويودون نقل الخلافة إليهم ، ثم قفز بوشايته إلى القمة حين أسر للرشيد ولخاصته أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة .

ولا يخفى عليك أن تهمة التطلع إلى الخلافة كانت كافية لقطع رؤوس البرامكة . ومن هو أكبر من البرامكة .

الوزير الأفعى :

الحديث عن البرامكة . . يثير فى النفس كوامن الألم والمرارة ، لأنهم ذهبوا ضحية الحقد المتأصل عند بعض أصحاب النفوس الوضيعة الذين نقموا على البرامكة مكانتهم السامية ، وشهرتهم الفائقة ، ومجدهم الرفيع ، ومن شأن الصغار إذا عجزوا عن منافسة الكبار أن يلجئوا إلى الكيد والدس ، وكان البلاط العباسى مسرحا لهذه الحرب القذرة التى شارك فيها دهاة فى فن تدبير المؤامرات ، ولاشك أن نظام الحكم العباسي ، بحكم طبيعته الاستبدادية الفردية ، كان مشجعا على أن تؤتى هذه المؤمرات ثمراتها الخبيثة ، فالذى ينفرد بأذن الخليفة يستطيع أن يصب فيها ماشاء من سموم ، وكان الخلفاء

العباسيون ـ على اختلاف قدراتهم النفسية ـ يرحبون بسماع الوشايات ، لأنها تنقل إليهم خبايا الصدور والقصور ، وتأتيهم بأنباء دبيب النمل فى كل مكان. فالمنصور ، برغم جبروته ودهائه ، كان يأخذ بالوشايات عملا بالمبدأ الذى ورثه عن أخيه ـ إبراهيم الإمام ـ مؤسس ومدبر الانقلاب العباسى ، وأعنى به شعار (من اتهمته فاقتله) أى من واجب الحاكم أن يأخذ بالشبهة ، ويبادر بقطع رأس من يشك فيه دون انتظار لتحقيق أو محاكمة ، وابنه المهدى سار على نهج أبيه فى هذا المضمار خاصة وقد تفشت فى عهده ظاهرة الزندقة . . وهى تهمة راح ضحيتها العديد من الأبرياء ، أما الرشيد فكان أشدهم قبولا لسماع الوشايات ، وماكان أسرعه إلى البطش بإشارة من بنانه إلى خادمه الأمين مسرور السياف (١١) .

فى هذا المناخ الملبد بالدسائس والمؤامرات ، سقط البرامكة من عليائهم ، ولعل الخطأ الذى وقع فيه البرامكة أنهم كانوا من العبط والسذاجة وطيبة النفس بحيث لم يعملوا حسابا لهؤلاء الخصوم الذين كانوا يسهرون الليل فى التفكير والتدبير والتآمر . . بينما البرامكة يسهرون فى مجالس العلم ، وقضاء شئون الناس ، وإدارة الدولة ، لقد أفرط البرامكة فى الثقة بأنفسهم ، وأفرطوا فى الثقة بالخليفة الرشيد ، كما فرطوا فى الحذر من خصومهم ، ولما يأبهوا بما يدبرون . .

لقد نسوا أنهم فى دولة يحكمها فرد ، ليس نبيا معصوما ، ولكنه بشر له عواطف وأهواء ، وغاب عن ذهنهم أن الرشيد كان شابا عاطفيا حاد المزاج ، متقلب الأهواء ، يستمع إلى عظة من فقيه أو صوفى فيبكى ساعة ويصلى مائة ركعة ، ثم . . تتغلب عليه نزوته فيقضى بقية الليل بين الكأس والطاس وأحضان الجوارى . . ولم يرد على خاطر البرامكة أن ينقلب عليهم الرشيد وهم الذين ربوه وعلموه وحافظوا على عرشه ، ونابوا عنه فى إدارة الإمبراطورية

العباسية بكل مالديهم من مقدرة وكفاءة . . ولم يعملوا حسابا للأفعى التى كانت تتسلل فى الخفاء لتنفث السم الزعاف فى أذن الرشيد . . واسم هذا الأفعى : الفضل بن الربيع . .

الحرب السجال :

تذكر هذا الاسم جيدا . . وضعه فى بؤرة شعورك وأنت تبحث عن الجوانب الخفية فى نكبة البرامكة ، وستخرج منها بالعبرة . . عبرة الحرب السجال بين الخير والشر . . والنبل والخسة . . والكرم واللؤم . . ولتتعلم من درس البرامكة كيف نجحت النفس الأمارة بالسوء فى اقتلاع الزهور النبيلة . . وقتل معانى الخير والجمال والشرف . .

كان الفضل بن الربيع أحد وجهاء البلاط العباسى ، وكان يشغل منصبا مرموقا فى دولة الرشيد ، ولكنه لم يقنع بما وصل إليه ، كانت نفسه الوضيعة تتأجج حقدا كلما سمع اسم البرامكة يتردد على ألسنة الناس ، وكانت روحه المفطورة على الخسة تقدح شرا على المكانة الرفيعة التى صنعها البرامكة بكفاءتهم وكرمهم وحسن سياستهم ، وبدلا من أن ينافسهم فى سباق القمة ، راح يدبر لهم المؤامرات ، ويؤلب عليهم قلب الرشيد ، ويتصيد لهم الأخطاء وينسج حولها الأكاذيب ، ويصبها فى أذن الخليفة مجسمة مكبرة كى يوغر صدره .

كان هذا الرجل الأفعى ـ الفضل بن الربيع ـ يعلم جيدا مدى قوة البرامكة ويعرف أن أقدامهم راسخة ، وبنيانهم متين ، ومع ذلك لم يتسرب اليأس إلى قلبه فى قدرته على هدم صرحهم ، وإزالة مجدهم ، مستخدما فى ذلك كل أسلحة الخسة ، وهل هناك أحط ممن يستعمل الرشوة فى تجنيد أحد أعوانهم

ليكون عينا له عليهم ، وينقل إليه أخبارهم وأسرارهم ليعيد صبها فى أذن الرشيد محرفة مزورة (١١) ثم مضى لكى يمتلك قلب الرشيد بعد أن ملك أذنه . . وعلم أن أقرب المسالك إلى قلب الرشيد هو باب النساء . . وللنساء فى حياة الرشيد تاريخ مرصود ، وأول النساء تأثيرا على الرشيد كانت أمه (الخيزران) التى كانت تعشق السلطة ، وتتدخل فى شئون الدولة ، وتفرض إرادتها على الخليفة سواء كان ابنها الأول (الهادى) أو ابنها الثانى (الرشيد) وهى المرأة الوحيدة التى كانت أما لخليفتين ، ولكنها أرادت أن تجعل منهما أشباحا بلاسلطة أو نفوذ ، وعندما تولى الرشيد الخلافة ـ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ـ قبل بالأمر الواقع ، وترك أمه تدير شئون الدولة ، عندئذ حاول الفضل ابن الربيع أن يتقرب منها لعلها تمنحه ثقتها وتعهد إليه بمنصب كبير ، ولكن الخيزران كانت تعلم الكثير عن أخلاقه وبراعته فى الدس والوقيعة ، فعملت على إبعاده عن القصر اتقاء لشره ، فلما ماتت حلت محلها الملكة (زبيدة) زوج الرشيد وابنة عمه وأكثر الناس تأثيرا عليه . عندئذ لاحت الفرصة أمام الفضل ابن الربيع ليتقرب إلى زبيدة ويغريها بأن يكون لها من النفوذ فى إدارة شئون الدولة ماكان للخيزران ، لولا البرامكة الذين يسيطرون على زوجها الرشيد ، ويحولون بينها وبين ماتريد . . أو ما يريد لها الفضل . . ووجدت هذه النغمة قبولا فى نفس زبيدة ، فبدأت تعمل على إلقاء الشكوك فى نفس زوجها من البرامكة . وبذلك نجح الفضل بن الربيع فى كسب أول نصير له عند الرشيد . . ومضى فى الطريق الوعر للقضاء على البرامكة .

الثنائى العجيب :

وقبل أن أمضى معك فى سرد ألا عيب هذا الرجل الأفعى ، ينبغى أن أحدثك عن أبيه الربيع بن يونس حتى تكتمل أمامك صورة الابن الذى رضع

عن أبيه لبان الدس والتآمر ، وإذا كان المثل العربى يقول : الولد صنو أبيه ، فإن هذا المثل لاينطبق على أحد قدر انطباقه على هذا الثنائى العجيب .

فقد جاء الابن صورة كربونية من أبيه الذى اكتسب شهرة فائقة فى تدبير الدسائس والمؤامرات . ويكفى أن تعرف أصل هذا الرجل لتعلم أن الإناء ينضح بما فيه وأن ظروف النشأة الأولى تتحكم فى مسار الإنسان وخلقه وطباعه مهما كانت المكانة التى وصل إليها . .

كان الربيع بن يونس وزيرا فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور ، ومع ذلك فقد تغلبت عليه وضاعة المنبت ، وحقارة الأصل ، فكانت سيرته نموذجا للحقارة وسوء الخلق ، ويتفق المؤرخون على أن الربيع كان شخصا مجهول الأصل ، مغمور النسب ، وتقول بعض المصادر التاريخية إنه كان لقيطا لايعرف نسبه أو والده ، ولذلك كان عرضة للنقد اللاذع من منافسيه وخصومه ، فقد تربى عبدا حتى بيع فى سوق النخاسة ، وتداولته الأيدى حتى أهداه أحد الأمراء العباسيين إلى الخليفة المنصور فأعتقه وأعطاه حريته وأخذ يصعد فى سلم المناصب داخل القصر حتى أصبح حاجبا للخليفة الذى عهد إليه بالإشراف على بناء قصر الخلد ليكون مقرا للحكم بعد بناء بغداد ، ثم أصبح مسئولا عن رقيق الخليفة ، وفى يده مفاتيح الخزائن . ولاشك أن صعوده إلى المراتب العليا فى الدولة كان يرجع إلى كفاءته الإدارية ، والمعروف عن هذا الطراز من الأشخاص المطعون فى نسبهم ، أنهم يمتلكون قدرات خاصة يعوضون بها النقص فى حياتهم ، ومع ذلك فإنهم لايستطيعون التخلص من عقدة الوضاعة فيسلكون الطرق الدنيئة للوصول إلى مراكز الصدارة ، ولايتورعون عن طعن كل من يقف فى طريقهم ، وإليك هذه القصة التى تؤكد صحة ما نقول :

كان أبو أيوب المورياني وزيرا للخليفة المنصور ، وصديقا للربيع بن

يونس ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الصداقة من أن يحفر للموريانى حفرة أودت بحياته كى يحل محله فى منصب الوزارة ، وكان المنصور قد عهد إلى وزيره الموريانى بالإشراف على تعمير إقطاع زراعى لابنه فى منطقة الأهواز ، ودفع إليه بثلاثمائة ألف درهم لينفق منها على تعمير الأرض ، ولكن الوزير تعرض لضائقة مالية جعلته يبدد الأموال فى غير الغرض الذى يريده الخليفة ، وكان المنصور كلما سأل الوزير عن أخبار الأرض زعم له أنها أثمرت ، ويقدم إليه بعض الأموال على أنها من ريع الأرض . حتى جاء يوم طلب فيه الخليفة من الموريانى أن يدبر له جولة لتفقد الإقطاع . . وأسقط فى يد الوزير . . وتفتق ذهنه عن حيلة يخدع بها المنصور ، فغمر الأرض بالماء ليعوق توغل الخليفة فيها ، وأقام عددا من المنازل على حافة الضيعة وغرس فيها الأشجار والنخيل حتى تبدو له وكأنها مكتملة الزراعة . . وعندما ذهب المنصور وجد المزرعة على النحو الذى وصفناه ، وكاد يصدق أن الضيعة زرعت فعلا لولا أن شخصا ماهمس فى أذنه بأن كل ما يراه محض اختلاق وزيف . وعليه أن ينتظر حتى ينحسر الماء . . ليرى الحقيقة . . أرضا جدباء لازرع فيها ولا ضرع (!!)

وانتظر الخليفة . . واكتشف ان وزيره خدعه وخانه . . فقبض عليه وعاد به إلى بغداد . . وقال له : أكنت آمنا أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الآجل حلول دار الفاسقين ، ونادى الظالمين الناكثين ؟

فقال الموريانى : يا أمير المؤمنين ، إن للمتهم فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله ﷺ عدل السياسة ، وشرف القرابة فأقلنى (يعنى اعذرنى) .

قال : لايسعنى مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، إقالتك ، ولا العفو عنك .

ثم حبسه وحبس أخاه وبنى أخيه ، وأجبروا على رد الأموال . . ثم أمر المنصور بقتل أبى أيوب المورياني .

خيانة الصديق :

ولك أن تسأل : من الذى أنبأ أمير المؤمنين بنبأ الخيانة التى ارتكبها وزيره المورياني ؟ وأبادر فأجيب بأنه صديقه الربيع بن يونس .

ولك أن تسأل : وكيف عرف الربيع بنبأ خيانة الوزير ؟

فأقول لك إن الربيع اصطنع لنفسه جاسوسا فى بيت الوزير ، اسمه أبان ابن صدقة ، وكان كاتبا للمورياني ، فاستماله الربيع ،وجعل له مرتبا شهريا فى مقابل أن يأتيه بكل مايدور فى مجلس الوزير ، وعرف أبو أيوب المورياني أن (أبان) يأتى الربيع كل ليلة فينقل إليه الأسرار ، فيتولى الربيع نقلها إلى مسامع الخليفة مضافا إليها التحابيش الكفيلة بتأليب الخليفة ضد وزيره . هكذا باع الربيع بن يونس صديقه المورياني من أجل وراثة منصبه الوزارى . ضاربا عرض الحائط بكل المعايير الأخلاقية ، فكل مايهمه هو الوصول إلى مبتغاه ولو أدى الأمر إلى قتل أقرب الناس .

دم الابـــــن :

وفى عهد الخليفة المهدى بن المنصور كان للربيع بن يونس قصة لاتقل حقارة ودناءة عن قصته مع صديقه المورياني . بل تفوقها فى البشاعة والخسة ، وكان وزير المهدى رجلا كريم الخلق عفيف النفس اسمه أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، ولكن الربيع بن يونس بدأ يوجه إليه سهامه كى يطيح به ويحتل مكانه .

ولكن الرجل لم يصدر عنه مايستوجب الإطاحة به ، إذ كان موضع ثقة المهدى ، ومع ذلك لم تهدأ نفس الربيع بن يونس الشريرة ، وأخذ يقدح ذهنه بحثا عن وسيلة يهدم بها هذا الرجل النبيل ، فلما ضاقت به السبل لجأ إلى أحد خصوم الوزير ـ واسمه القشيرى ـ واختلى به ، وطلب منه أن يشتركا معا فى البحث عن وسيلة لإزاحة الوزير معاوية بن يسار عن منصبه ، فقال له القشيرى : إن الرجل أمين فى عمله ، حاذق فى إدارته ، وإنه لأعف الناس حتى لو كانت بنات المهدى فى حجره لكان لهن موضعا ، كما أن ولاءه للدولة ليس موضع تهمة ، وليس متهما فى دينه لأن عقده وثيق . . فكيف السبيل إلى طعنه ؟

قال الربيع بن يونس : كل ما تقوله عن الرجل عين الحق . . وليس من سبيل إلى الطعن فى دينه أو معتقداته . . ولكن ماذا عن ابنه عبد الله الذى يشاع عنه الزندقة . . وأنت تعلم شدة المهدى على الزنادقة (!!) .

وما إن سمع القشيرى ، هذا الاقتراح حتى طابت نفسه ، وقال للربيع : هذا هو السبيل الوحيد للقضاء على الأب وابنه . . فقام الربيع وقبل جبهة القشيرى واتفقا على الدس عند المهدى بشأن ابن الوزير واتهامه بالزندقة . وكان المهدى لايرحم أحدا منهم ، وما إن رأى وزيره حتى سأله عن ابنه فقال له إنه حفظه القرآن الكريم ، وعلمه أمور الدين ، ولكن الربيع يواصل الدس والوشاية بأن ابن الوزير زنديق وأنه يشجع أضرابه من الشبان على الزندقة ، وإنهم جميعا يحتمون بنفوذ أبيه ، فطلبه المهدى حتى دخل عليه فسأله فى حضرة أبيه أن يقرأ شيئا من القرآن ، فتلعثم ، فالتفت إلى أبيه لائما ومعنفا وقال له : ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن ؟ وأسقط فى يد الأب ، وقال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقنى منذ مدة فنسيه ، فما كان من الخليفة إلا أن قدم إليه سيفا وأمره قائلا : قم فتقرب إلى الله بدمه (!!)

تصوروا . . حال هذا الأب الذى يأمره أمير المؤمنين بأن ينهض ويقطع رأس ولده ـ تقربا إلى الله ـ لأنه ليس حافظا للقرآن (!!)

نهض الرجل لينفذ أمر الخليفة . . ولكن قدميه لم تحملاه . . فتعثر . . وسقط يتدرج فى ثيابه . . وشهد أحد أمراء البيت العباسى هذا المشهد الفظيع فتدخل فى الأمر . . لا ليطلب من الخليفة أن يتراجع عن قراراه ، ويعفو عن الابن ، ويرحم الأب ، ولكن ليعفى الأب من مهمة قتل ولده . . ويعهد بهذه المهمة إلى سواه ـ ورق قلب الخليفة للطلب . . وأمر أحد رجاله بأن يضرب عنق الفتى بدلا من أبيه (!!)

نهاية وزير :

نجحت خطة الربيع بن يونس فى تحطيم كرامة الوزير معاوية بن يسار . . حتى رأى مقتل ابنه أمام عينيه ، فهل اكتفى بما حدث ؟ وهل شفى غليله من الوزير ؟ وهل أفرغ مافى نفسه من أحقاد وضغائن ؟

أبدا . . لأن النفس التى فطرت على الفساد لاتهمد ولاتخمد حتى النفس الأخير . . لقد ساءه أن ظل الوزير فى موقعه يخدم الخليفة والدولة بنفس الإخلاص الذى كان يبديه قبل فجيعته فى ولده ، وتفتق ذهنه عن مؤامرة جديدة يقضى بها على ما تبقى عند الوزير من حياة . . ليقضى عليه قضاء مبرما . . ويضرب ضربته الأخيرة . . وكانت تلك القصة التى يرويها الجهشيارى فى كتابه (الوزراء والكتاب) .

لما قتل المهدى عبد الله ابن وزيره معاوية بن يسار ، قال الربيع بن يونس لبعض خدم الخليفة : لك على ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئا لايضرك .

قال له : وما هو ؟

قال : إذا دخل معاوية بن يسار على المهدى فصار بحضرته . قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ؟

ففعل الخادم ذلك ، فكان هذا مما أوحش المهدى من معاوية .

ويروى صاحب الفخرى قصة مماثلة :

دخل الوزير معاوية بن يسار على المهدى ليعرض عليه كتبا قد وردت من الأطراف فأمر المهدى بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع بن يونس ، فلم يعرض الوزير شيئا من تلك الكتب انتظارا لخروج الربيع ، فقال المهدى : اخرج يا ربيع ، فتمهل الربيع قليلا . . فقال المهدى : ألم آمرك بالخروج ! قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه (معاوية) وقد قتلت ابنه بالأمس ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ فثبت هذا المعنى فى نفس المهدى ، إلا أنه قال : يا ربيع . . إنى أثق بمعاوية فى كل حال ، ولكن الواقع أن المهدى داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال للوزير : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر .

قال الجهشيارى : ثم صرف المهدى معاوية بن يسار عن وزارته عام ١٦٣ م واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل عام ١٦٧ وقلده الربيع بن يونس وقال له : إنى استحى من معاوية بسبب قتل ولده ، فاحجبه عنى ، فحجب عنه وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، وبذلك انفسح الطريق أمام الربيع بن يونس ليحتل مكانه بفضل قدرته على الدس والائتمار والسعاية . . وانطوت بذلك صفحة وزير من خيرة الوزراء العباسيين هو أبو عبيد الله معاوية بن يسار . . وانبسطت صفحة وزير من أحقر وأسفل وزراء

العصر العباسى . . ومع ذلك فإن جرائمه تتضاءل إلى جانب الفظائع التى ارتكبها ابنه الفضل بن الربيع حتى تم له ما أراد من إزاحة البرامكة . .

محراك الشر :

إذا سألتنى : هل يولد إنسان شريرًا بالفطرة . . حاقداً بالسليقة دنيئا بالجبلة . . لقلت لك : علم هذا عند ربى . . أما إذا سألتنى : لماذا كان الربيع بن يونس ، الوزير الأفعى ، وولده الفضل يحملان فى قلبيهما أطنانا من الحقد على البرامكة ؟ لقلت لك إن النفس الأمارة بالسوء تدفع اللئيم إلى مناجزة الكرام ، والتحامل على العظماء ، فإذا عجز عن الارتقاء إلى مستواهم بالطرق المشروعة ، فإنه يلجأ إلى الوسائل الخسيسة كالدس والوقيعة والوشاية ، وقلت لك إن العصر الذي نتحدث عنه كان يسمح لهذه السموم أن تسرى وتنمو حتى تستفحل فتتساقط رؤوس . . وتهوى نجوم . . وتشتعل حروب . . ويتراجع النبل والشرف والكرم أمام جحافل الخسة والوضاعة .

هكذا كان شأن الربيع بن يونس وولده مع البرامكة وغير البرامكة من وجهاء العصر العباسى ، ولكن البرامكة كانوا أشهر ضحاياهما نظرا لمكانتهم وسمعتهم التى طبقت الآفاق . وهناك من المؤرخين من يلوم البرامكة لأنهم قصروا فى شأن الربيع وولده ، وكان عليهم أن يكسروا سمهما بفيض من كرمهم ، وأن يبطلوا مفعول شرهما بالصلات والأعطيات . . ولكن البرامكة لم يتنبهوا إلى هذا الاسلوب الانتهازى إلا بعد فوات الأوان . . وبعد أن حاصرتهم المؤامرات . . وصار القضاء عليهم أمرا محتوما .

قبل أن أحدثك عن الحبائل التى نصبها الفضل ـ الابن ـ للإيقاع بالبرامكة ، لابد أن أحدثك عن نهاية الأب ـ الأفعى ـ كى تؤمن إيمانا لاشك

فيه بأن محراك الشر لابد أن ينحدر وينكسر ـ مهما زين له شيطانه أنه الغالب . . وبذلك يتحقق العدل الإلهى فى الظالمين والجبارين . .

لقد كانت حياة الوزير الأفعى الربيع بن يونس سلسلة من الدسائس والمؤامرات ضد كل من يقف فى طريقه . . استطاع أن يطيح بالوزير (الموريانى) بعد أن كاد له عند الخليفة المنصور ، واستطاع أن يكيد للوزير معاوية بن يسار عند الخليفة المهدى الذى لم يرحم شيخوخته وأمانته وورعه فأمره أن ينهض فيضرب عنق ابنه لأنه تلعثم فى تلاوة القرآن . وبهذه الوسائل البشعة استطاع الربيع أن ينفرد بكرسى الوزارة ويصير الرجل الأول فى بلاط المهدى ، حتى إن المهدى عندما سار إلى جرجان فى آخر سفرياته عهد إلى الربيع ليكون نائبا عنه فى بغداد ، وكانت المرة الأولى فى تاريخ الدولة العباسية التى يجعل فيها الخليفة نائبا عنه شخصا من الموالى ، لا ينتمى إلى البيت العباسى ، وفى هذا دلالة على المكانة التى بلغها الربيع بعد أن أزاح الطامعين بمن فيهم أمراء الدولة العباسية . ومات المهدى فى هذه السفرة ، وكان قد جعل ولاية العهد فى ابنه موسى (الهادى) ومن بعده ابنه الثانى هارون (الرشيد) . وما إن علم الربيع بموت الخليفة حتى تعجل بأخذ البيعة للهادى وولى عهده الرشيد دون انتظار لعودة الهادى إلى عاصمة ملكه ـ بغداد ـ وكان يهدف من وراء هذا التسرع أن يكسب رضاء السيدة الأولى (الخيزران) أم الهادى والرشيد ، والتى كانت تفضل الثانى على الأول وتدبر انقلابا لتعيينه خليفة بدلا من أخيه ، وكان الهادى يعلم نيات أمه ، ولذلك كان يفضل التريث حتى تتاح له الفرصة لخلع أخيه من ولاية العهد ، فجاء تسرع الربيع على غير هوى الخليفة الجديد . فهدده بالقتل ، ولكن الوزير الداهية استطاع أن يقنع الهادى بسلامة قصده ، فعفا عنه ، وإن شئت الدقة لقلت إنه تظاهر بالعفو عنه . وأضمر فى نفسه الخلاص منه فى أقرب فرصة ، حتى إذا لاحت له هذه الفرصة أطاح بوزيره الذى دوخ الجميع بدهائه ومؤامراته ودسائسه .

أما كيف كانت نهايته فذلك موضع خلاف بين المؤرخين ، ويذكر الدكتور فاروق عمر فى كتابه (الجذور التاريخية للوزارة العباسية) إن الروايات التاريخية التى بين أيدينا تعددت حول موت الربيع بن يونس ، ومعظمها يشير بطريقة أو أخرى إلى أن الخليفة الهادى له يد فى ذلك ، وسواء كان سبب قتله لتعليقه الشائن على جارية المهدى وأم ولده ، أو للشائعات التى أطلقها أعداء الربيع بأن الهادى قد غلبه حب الجارية فأصبح طوع بنانها وتحت تأثير سيدها السابق ـ الربيع بن يونس ـ والذى يبدو لنا أن الهادى لم يسامح الربيع على تأكيده البيعة بولاية العهد لهارون الرشيد ، خاصة بعد ما عاناه الهادى من ضغوط للتنازل عن حقوقه لهارون ، وإنه كما يبدو كان عازما على تنحية الرشيد من ولاية العهد وأخذ البيعة لابنه (جعفر بن الهادى) بدل هارون . . فعزم على التخلص منه بالسم (١١).

نهاية الأفعى :

تلك كانت نهاية الأفعى . . الموت بالسم . . ولو شئنا الدقة لقلنا إنها أقرب إلى نهاية العقرب التى تلدغ نفسها حتى الموت . . وتجرع الربيع من الكأس التى طالما جرعها لخصومه . وجرى عليه حكم العدالة الإلهية التى اقتصت لأرواح ضحاياها .

العجيب فى الأمر أن ابنه الفضل خلفه فى منصبه كما ورثه فى طباعه وأخلاقه ، ولم يتعظ بما جرى لأبيه ، وظل يحذو حذوه فى الدس والوقيعة وانفسح أمامه المجال ليمارس حرفته خاصة وإن الهادى لم يعمر طويلا ، وجاء من بعده الرشيد والبرامكة يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم ، وقد آلت إليهم كل مقاليد الأمور فى دولة العباسيين .

نظر الفضل حوله فى جنبات البلاط بحثا عن ثغرة ينفذ منها إلى السيطرة على الخليفة الجديد والتحكم فى شئون الدولة ، فبدأ يتقرب من أم الخليفة (الخيزران) تلك المرأة المتسلطة التى استبدت بأمور الدولة طوال حكم ابنها الهادى ، لدرجة أنها كانت تستدعى الوزراء والقادة والحجاب وتصدر إليهم الأوامر والنواهى دون مراعاة لسلطات ابنها الجالس على العرش حتى استفزته فأرسل إليها ينصحها ويقول : « لا تخرجى من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فإنه ليس من قدر الفساد الاعتراض فى أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك » . ومع ذلك لم تسمع لهذا الرجاء المهذب ، وغلبت عليها صرامتها وحبها للسلطة ، وظلت على سيرتها فى التحكم حتى إذا يئس الهادى من كبحها بعث إليها مهددا : «مكانك تستوعى كلامى . . والله ، وإلا فأنا نفى من قرابتى من رسول الله ﷺ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن فعل ذلك فليلزم ذلك ، ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم ! أما لك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك ، ما فتحت بابك لملى أو لذمى» .

ولم يفلح التهديد معها فبعث إليها بطعام مسموم . فلم تأكله وعقدت العزم على الإطاحة به ويقال إنها بعثت بعض جواريها وهو مريض فقعدوا على رأسه حتى خمدت أنفاسه ، فلما جاء الرشيد من بعده سارت معه سيرتها مع سلفه ، وظلت تتحكم فى شئون الدولة دون أن يجرؤ الرشيد على صدها ، ومن هنا لاح للفضل بن الربيع أن يلوذ بها ليتمكن ــ عن طريقها ـ أن يكون له قدر من النفوذ ولكن الخيزران كانت تعرف عن أخلاقيات الفضل ــ وأبيه ــ ما جعلها ترفض مساعيه ، وتحذر ابنها الرشيد من مؤامراته ونياته وظل الرشيد

ملتزما بوصايا أمه ، ولكن ما إن ماتت حتى انفتح الباب أمام الفضل بن الربيع ليتسلل إلى قمة السلطة .

نقطة التحول :

قلت لك إن البرامكة ـ يحيى بن خالد وولديه الفضل وجعفر ـ كانوا يهيمنون على شئون الدولة منذ تولى الرشيد الخلافة ، ولم يكن هناك من يستطيع منافستهم فى حسن إدارتهم ، وكانت الخيزران تثق فى ولائهم لابنها ، ولكن موتها المفاجىء عام ١٧٣ هـ جاء بمثابة نقطة تحول فى مسلك الرشيد نحو البرامكة ، لقد كان خاتم الدولة فى يد جعفر بن يحيى فنزعه منه الرشيد وعهد به إلى الفضل بن الربيع ، فإذا علمت أن خاتم الدولة هو رمز السلطة والنفوذ لأدركت خطورة هذا التحول المفاجىء من جانب الرشيد تجاه البرامكة وستعلم أن هذا التحول الذى حدث قبل سبعة عشر سنه من النكبة إنما هو دليل على أن نفس الرشيد تغيرت نحو البرامكة منذ وقت مبكر ، وإن نكبتهم لم تكن نزوة مفاجئة خطرت له فى لحظة طيش ، فإذا أضفت إلى ذلك أن الخاتم أصبح فى عهدة الفضل بن الربيع ـ العدو اللدود للبرامكة ـ فسوف تتضح لك بوادر هذه المؤامرة الكبرى التى لعب فيها الفضل بن الربيع دور محراك الشر . ونفث فيها سمومه ، وخصص لها كل ما يملك من أفانين الفساد .

ويبدو أن الرشيد ـ ولم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره ـ قد وقع تحت تأثير الفضل بن الربيع منذ تولى مسئولية الخلافة ، وإنه كان يميل إليه ضاربا عرض الحائط بتحذيرات أمه ، حتى إنه قال له وهو يدفع إليه بالخاتم : وحق المهدى ـ أبيه ـ إنى كنت لأهم لك بالشىء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها . . فخذ الخاتم من جعفر (١١) .

تأثير النساء :

ومن شأن هذا الاعتراف الصريح من جانب الرشيد أن يقنع الفضل بمدى تأثير النساء على شخصية الرشيد وأولهن أمه الخيزران التى كانت تعمل على إبعاد الفضل عن ابنها . أما ثانيتهن فهى الأهم والأخطر لأنها السيدة الأولى فى قلب ودولة الرشيد . وأحب النساء إليه وأقربهن إليه عصبا . . فهى زبيدة بنت جعفر ابن الخليفة المنصور ، وأم ابنه محمد (الأمين) والتى يقول عنها الدكتور مصطفى جواد فى كتابه (سيدات البلاط العباسى) : هذه السيدة العظيمة قد أصبحت علما لكل سيدة كبيرة عباسية من سيدات البلاط العباسى ، كما صار زوجها هارون الرشيد علما لكل خليفة عباسى عظيم ، وعد وزيره جعفر ابن يحيى البرمكى علما لكل وزير خطير من وزراء الدولة العباسية . . ثم يقول :

ولقد أحبها الرشيد حبا جما حتى إن أخاه الهادى لما عزم على خلعه من ولاية العهد ، طاب الرشيد بذلك نفسا ، فقال له يحى بن خالد البرمكى : لا تفعل . . فقال الرشيد : أليس أخى يترك لى الهنىء والمرىء ! فهما يسعانى وأعيش مع ابنة عمى زبيدة . . فهو قد فضل العيش معها على الخلافة ، ورأى فيها غنى عن هذه المرتبة العظيمة والأبهة الجسيمة .

لقد عرف الفضل بن الربيع مدى شغف الرشيد بزبيدة ومكانتها لديه . فبدأ ينسج شباكه من حولها حتى يستطيع أن يجعل منها أداة تحقق له مراميه الخبيثة عن طريق تأثيرها على الرشيد . وكانت خطوته الأولى إغراءها بأن تمارس سلطات السيدة الأولى فى الأمر والنهى كما كانت الخيزران تفعل فى حياة زوجها ـ المهدى ـ وإنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها من الأمر ما كان للخيزران ، فلما وجد منها أذنا صاغية ضرب ضربته الثانية ، أو خطا خطوته المؤثرة فى نفس زبيدة ، وأخذ يضرب على الوتر

الحساس الذى يثير شجونها والذى يتعلق بابنها (الأمين) وحقه فى ولاية العهد بدلا من (المأمون)الذى يقف البرامكة مـن خلفه بحكم العصبية الفارسية التى كانت تجمعهم بأمه (مراجل) وأخذ الرجل الداهية يضخم لها الأمور ، ويزين لها التدخل لـدى زوجها الرشيد للحفاظ على حق الابن فى ولاية العهد ، وإفساد خطة البرامكة فى الانحياز نحو المأمون . ولابد هنا من إلقاء الضوء على مشكلة ولاية العهد التى كانت سببا من أسباب نكبة البرامكة بالرغم من الجهود التى بذلوها للحفاظ على نظام الوراثة الذى قرره الرشيد ، ولكن المساعى الشريرة التى بذلها الفضل بن الربيع كانت أقوى منهم ودفعت الدولة كلها إلى حرب أهلية اشتعل أوارها لمدة خمس سنوات حتى أهلكت الحرث والنسل .

ولاية العهد :

كانت ظاهرة ولاية العهد ـ التى ابتدعها معاوية بن أبى سفيان حين فرض على أشراف بنى هاشم أن يبايعوا لابنه يزيد فى حياته ـ من أسباب الخلل الذى اعترى نظام الحكم ، وأدى إلى هضم حق الرعية فى اختيار ولى أمرها ، ومع أنها كانت أحد أهم أسباب انحلال الدولة الأموية ، إلا أن خلفاءهم العباسيين لم يتعظوا من نكبة أسلافهم ، ومضوا على نهجهم فى جعل ولاية العهد فى أكثر من وريث مما أدى إلى تطاحنهم ، ولعل أفظع نتائج هذا التطاحن ما جرى على يد الخليفة هارون الرشيد عندما جعل ولاية العهد لابنه الأمين ترضية لأمه زبيدة ، وبإيعاز من الوزير الداهية الفضل بن الربيع ليجعل منها مجالا للإيقاع بالبرامكة وإليك ملخص لهذه الكارثة كما أورده الدكتور أحمد شلبى فى الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية :

كان من الطبيعى أن تحب زبيدة ابنهـا الأمين ، وأن ترجو له المجد والخير ، ولكن من الحق على أن أقرر أننى ـ على الرغـم من محاولاتى ـ لم أجد فيما قرأت حديثـا صريحا من زبيدة للرشيد تحضـه على إيثار ابنها ، وإن كـان من الحق أيضا أن نقرر أنها لم تسلم من الإيعاز والتـدبير ، ولننظر إلى القصة الآتية لنرى ما فيها من الإيعاز .

روى المسعودى فى (مروج الـذهب) أن زبيدة دخلت على الرشيـد فقالت له : ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليتـه العراق ، وعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبدالله (المأمون) دونه ، فقال لها الرشيد : إنـى وليت ابنك السلم ، وعبد اللـه الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال مـن صاحب السلم .

يقول الدكتور شلبى : لا نزاع أن هذه القصة توحى بأنها كانت يقظة تتطلع إلى مصلحة ابنها ، وتبنى لـه مستقبله ، وفيها إيعاز بأنها تفطن لكـل ما يدور حول ابنها ولاتسمح لأحد بأن يمتاز عليـه . ومن جهة التدبير فقد دل عليه ما ذكره ابن الأثير فى(الكامـل) إن سبب البيعة للأمين أن خاله عيسـى بن جعفر جاء إلى الفضل بن يحيى البرمكى فسأله فى ذلـك وقال له : إنه ولدك وخلافته لك فوعده بذلك وسعى فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد .

(وهـو يقصد أن الأمين تـربـى بين يدى الفضـل ، بينما تـربى المأمـون فى أحضان جعفر) .

داخل الكعبة :

والذى أفهمه من هذه الرواية ـ يقـول الدكتور أحمد شلبى ـ أن سعى عيسى كان بتدبير أختـه زبيدة ، وإنه كان يتكلـم باسمها ، ثم كـان هذا يتفق ورأى

بنى هاشم الذين يفضلون محمد بن زبيدة على المأمون بن مراجل ، وقد استطاع عيسى مع الفضل أن يأتيا البيوت من أبوابها ، فقد كان البرامكة يحرصون على إرضاء زبيدة ، لتميل إلى جانبهم بدلا من انحيازها إلى جانب الفضل بن الربيع ، الذى كان يقوى ويعتمد عليها . وانضم بذلك البرامكة إلى المعسكر الذى يعمل لصالح الأمين وخضع الرشيد لكل هذه الرغبات وعقد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٥ هـ ولقبه بالأمين ، ومع ذلك فإن الرشيد لم يستشعر الراحة ولم تطب نفسه لتجاهل حق المأمون ، وبالتالى أدرك البرامكة سوء المغبة من هذا الوضع الجائر ، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون مع أن الأول أحدث سنا وأقل كفاءة ، فأشار جعفر البرمكى على الرشيد بأن يبايع للمأمون من بعد الأمين . وفى مرحلة لاحقة بايع لابنه الثالث : القاسم من بعد المأمون . وأقسموا على ذلك أغلظ الأيمان .

وبذل الرشيد ومعه البرامكة أقصى الجهد رجاء أن يوفى ولاة عهده بما وعدوا ، وان يبروا بما اقسموا عليه ، واتجهت عنايتهم إلى الأمين فهو ولى العهد الأول ، وفى يده مفتاح الفتنة إن غدر ، وتضاعفت جهودهم لأن الثقة بالأمين لم تكن قوية ، وقد سجل الرشيد ذلك فى رده على زبيدة إذ قال لها :

« إنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولانتخوف عبد الله على ابنك » وكان أبرز ما فعله الرشيد ليتحاشى الغدر من أولاده ، وليحمى المسلمين من فتنة عاصفة ، أن سار إلى مكة حاجا سنة ١٨٦ ومعه أولاده ووزيره والفقهاء والقضاة والقواد ، وهناك كتب كتابا على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون ، وكتب كتابا على المأمون وأشهد فيه على الوفاء للأمين ، وعلق الكتابين فى الكعبة ، وجدد العهود فيهما عليهما ، وقد أراد الوزير جعفر البرمكى أن يؤكد على الأمين أن يكون وفيا لأخيه بارا بعهده ، فطالبه أن يضيف فى قسمه قوله : « خذلنى الله إن خذلته » .

فقال ذلك ثلاث مرات .

وكان الظن أن تعمل هذه المواثيق على سد باب الفتنة ، ولكن ما حدث هو العكس تماما . . وما إن مات الرشيد سنة ١٩٣ هـ حتى انفتحت أبواب الجحيم وشبت نيران حرب أهلية بين أنصار المأمون وأنصار الأمين وكان محرك الشر فى هذه الحرب الضروس هو الفضل بن الربيع الذى كان يجد سعادته فيما يصيب الناس من كوارث .

الأخوة الأعداء :

فى هذا الفصل الدامى من فصول النكبة البرمكية يبرز الدور الخطير الذى قام به الوزير الأفعى الفضل بن الربيع ، فى إشعال نار الفتنة بين الأخوين ـ الأمين والمأمون ـ لكى يرضى نزعته الخبيثة ، ويشفى أحقاده ، لايهمه فى ذلك أن يتقاتل الأخوان ويقضى أحدهما على الآخر ، ولا يهمه أن تتأجج نار الفتنة ، وتتحول إلى حرب أهلية بين العرب الذين ناصروا الأمين ، والفرس الذين وقفوا خلف المأمون (١١) وما ظنك بحرب تدور رحاها لمدة أربع سنوات فتهلك الأرواح والأموال ، وتتسبب فى خراب الديار ، والأفعى لائذ فى جحره ينفث السموم ، ويصب الزيت على النار فتزداد اشتعالا .

قلت لك إن طموحات هذا الرجل الخبيث لم تتوقف عند المكانة المرموقة التى بلغها فى دولة الرشيد وفى ظل الوزارة البرمكية ، وإنما أراد أن ينفرد بالسلطة ، ويصير الرجل الأول ، بعد الخليفة ــ وتكون له الكلمة النافذة فى إدارة الدولة العباسية ، ولم يكن لمثل هذه الآمال أن تتحقق والبرامكة على قمة السلطة ، فعقد العزم على الكيد لهم والإطاحة بهم ، ولو اقتضاه ذلك أن يتجنى عليهم ، ويلوث سمعتهم ، ويشوه فعالهم فى نظر الرشيد وزوجته

الأثيرة (زبيدة) ويدبر لهم الدسـائس والمؤامرات ، وقلت لك إن الفضل ورث عن أبيـه فن التـآمر ، بـل تفوق عليـه ، لأن الأب كان يخوض معـارك فردية للخـلاص من الـوزير الـذى ينافسـه ، أمـا معركـة الفضل فكـانت جماعية للخلاص من أسرة بأكملها كانت لها السيادة والنفوذ على كل إدارات الدولة ، والإطاحة بهم تستلزم مخططات دقيقة ، وجهـودا جبارة ، وتجنيد مراكز القوى داخل البلاط العباسى . . ولم يكن لكل هذا سوى الفضل بن الربيع .

بدأ الفضل يضـع خطتـه فى إحكام بالغ الدقة ، وفى خطوات مرسومة كل منها تفضـى إلى الأخرى ، وكـانت الخطـوة الأولى كسب ثقـة السيدة الأولى ـ زبيدة فـإذا نجح فى ذلك انفســح أمامه الطريـق للسيطرة على صانـع القرار ـ الرشيـد ـ وأخذ الفضل يحرك فى نفـس زبيدة عاطفـة الأمومة نحو ابنهـا محمد (الأمين) ويزين أحقيته فى ولاية العهد ليكـون وريثا لأبيه فى منصب الخلافة ، وإن عليها أن تعجـل بإقنـاع زوجها ليتخذ القـرار قبل أن يسبقهـا البرامكة فى إسناد ولايـة العهد إلى عبد الله (المأمـون) لأنهم ـ فى رأى الفضـل ـ ميـالون إلى المأمون بحكم العصبية الفارسية التى اكتسبها المأمون من أمه (مراجل) .

أبريـــاء :

وكان البرامكة أبرياء من تهمة التعصـب العرقى وليس فى مصادر التاريخ ما يدل على انحيـازهم للفرس رغم جـذورهـم الفارسية ، والصحيـح أن البرامكة كانـوا ـ بحكم ثقافتهـم العالية ـ متفتحين على كافة الثقافـات والعصبيات ، وكـانوا أجـل وأكبر من أن يحصروا أنفسهـم فى إطار العصبيـة الضيقة ، وهـم الـذين أشرفـوا على إدارة دولة متعـددة الجنسيات والأعـراق . وفى ذلك يقـول الدكتور هولو جودت فرج : إن سياسة البرامكة كانت سياسة واقعية مجردة من الوسـاوس الحزبية ومهتمة بـالخير العام ، ولايمكـن التأكد أن البرامكـة أعطوا

الأولوية لسكان الـولايات الشرقية (الفارسية) على باقـى سكان الإمبراطورية ، لأن يحيـى اهتم بـرفـاهية وسعـادة السكان آمـرا بتنفيـذ الأشغال ذات المنفعـة العامـة . . كحفر الأقنية الجديدة ، وقـد عبر عن اهتمامـه بالمدن المقـدسة فى الجزيرة العـربية عن طـريق تموينها ، إذ أمـر بإجراء القمـح على أهل الحرمين ونقله مـن مصر إليهم ، وأجـرى على المهاجـرين والأنصـار وعلى وجوه أهـل الأمصار وعلى أهل الدين والآداب والمروءات ، واتخذ كتاتيب لليتامى ، كما أنه تبنى موقفا متسامحا تجاه الجميع ، وإذا كان يحيى وأولاده قد أبدوا اهتماما خاصا بالآداب الإيرانى ، أو على الأقل الهنـدو إيرانى ، إلا أنهم شجعوا أيضا تفسير ونقل الكتـب العلمية اليونانيـة ، ووضعوا النواة الأولى لبيت الحكمـة المشهور الذى أنشأه المأمون .

وأضيف إلى شهادة الدكتور فرج فأقول : لو ثارت شبهة التعصب الفارسى حول البرامكة لكان سيف المنصـور أسرع إلى رقابهم فى لمح البصر ، وهو الذى تعقب الـرؤوس الفارسيـة كلما ارتفعت وقطعها دون هـوادة ، وهو الـذى كان يأخذ بالشبهة ، وهو الذى اجتث رأس أبـى مسلم الخراسانى عندما استشعر منه بوادر الخطر ، ولم يكن للبرامكة ، أن يمكثوا على قمـة الدولة العباسية منذ نشأتها عـام ١٣٢ هـ لو صـح اتهامهم بالتعصـب الفارسى ، وهـذا لاينفى أن تكون هذه التهمة سببا فى نكبتهم ، وأن تكون أحد المبررات التى دبرها الفضل ابن الربيـع للوشاية بهم . وهذا مـا فعله عندما حرض عليهـم زبيدة ، وليس أدل على كذب هذه الفرية من أن البرامكة لم يعترضوا على ولاية العهد للأمين ، وعندما جـاءهم الأمير عيسى بن جعفر ـ أخـو زبيدة ـ يطلب منهم الوساطة لدى الرشيد لكى يفضل ابن أخته على المأمون ، وعدوه خيرا ، وبالفعل أشاروا على الـرشيد بـإسنـاد ولاية العهـد إلى الأمين ، وكشفـوا بذلـك عـن حصافـة سياسية ، وحسن إدراك لما يجرى خلف الكواليس ، فهم بذلـك أمنوا غضب

زبيدة ، كما قطعوا الطريق على الفضل بن الربيع حتى لايستقرد بالسيدة الأولى ويحرضها ضدهم مستغلا عواطفها تجاه ابنها .

يقول الأصمعى :

والقصة التى يرويها المسعودى فى (مروج الذهب) نقلا عن الأصمعى تؤكد عدم موافقة البرامكة على ترشيح المأمون (ابن الفارسية) بدلا من الأمين (ابن زبيدة العربية) وإنما نصحوا بترشيح المأمون بعد الأمين . قال الأصمعى :

بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة أخرى ويبكى أخرى ثم أنشأ يقول :

قلّد أمورَ عبادِ اللهِ ذاثقةٍ ... موحّد الرأى لا نكسٍ ولابرمُ

واترك مقالةَ أقوامٍ ذوى خطلٍ ... لايفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت ذلك منه علمت أنه يريد أمرا عظيما ، ثم أمر « مسرور » الخادم بإحضار يحيى بن خالد البرمكى ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله ﷺ مات من غير وصية ، والإسلام جذع والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة قد أمنها الله ـ عز وجل ـ بعد الخوف ، وأعزها بعد الذل ، فمالبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر ، فكان من خبره ما قد علمت ، وإن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن وهنه وضعفه وهو عبد الله (المأمون) وبنو هاشم مائلون بأهوائهم إلى محمد (الأمين) وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ،

والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوتـه يده ومشاركته النساء والإماء فى رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيـل الرأى ، الموثوق فى الأمر العظيم . . فإن ملت إلى عبـد الله أسخطـت بنى هاشـم ، وإن أفردت محمـدا بالأمـر لم آمن تخليطه على الرعية ، فأشر على فى هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر » .

فقال يحيى : « يـا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة ، وكل أمـر يتلافى ما خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مـأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا » .

يقول الأصمعى : فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا فى مبـاحثة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد .

عرش الخلافة :

وفى القصة التـى رواها الأصمعـى وشهد وقائعهـا بنفسه يمكـن أن تستنتج رأى الرشيد فى ولديه ، وكيف أنه يميل إلى المأمـون لرجاحة عقله وعمق ثقافته وحسـن تدبيره ، وإنـه ـ الرشيد ـ كان يفتقـد ذلك فى الآخـر الذى جمع مـن الصفات الهزيلة مـا يباعد بينه وبين عـرش الخلافة ، وإن الرشيد راجـع نفسه بعد كتابـة العهد للأمين ، وإنه فكـر فى خلعه وإسناد الأمر إلى أخيـه ، ولكن يحيى نصحه بألا يفعل لأنه كان يعلم مغبة ذلك على وراثة العرش ، وما يحمله من نـذر ومخاطر ، ووجد الحل فى بقـاء الأمين حيث وضعه أبـوه على أن يكون المأمون تاليا له . . واستجاب الرشيد لمشورة يحيى ولكنه أضاف إلى ولاية العهد ابنا ثالثا هو القاسـم ، ولم يفطن الرشيد إلى نتائج هذا المسلك الوعر الذى أدى

فى النهايـة إلى إذكاء نـار الصراع بين الأمين والمأمون بتحريـض من الفضـل بن الـربيع الـذى حرض الأمين على نقـض العهـد وخلع أخيـه المأمون ، وإليـك تفاصيل هذه القصة من بدايتها .

فى عام ١٧٥ هـ أذعن الرشيد لضغط زوجتـه زبيدة وعقد ولاية العهد لابنه (الأمين) وكان المفروض أن تقـف الأحداث عند هذا الحل الـذى أرضى جميع الأطراف . فزبيدة فرضت ابنها فى المكان الـذى تريده له ، والفضل بن الربيع حقق مأربه فى استهالة زبيدة والبرامكـة لم يعترضوا ، ولكن الأجنحة المضادة فى البلاط العبـاسى لم تسكت ، وأغضبها أن يصير مستقبـل الدولة فى يـد صبى يفتقر إلى الصفـات الحميدة ، وراعهـم أن يهضم حـق المأمون ، وبـدأت هذه الاجنحة تضغط على الـرشيد ليرجع فى قراره ، ويبدو أن الخليفـة كان مستعدا لقبول هذه الضغـوط ، وفى القصة التى رواها الأصمعى دليـل على عدم رضاه عن ابنه الأمين ، ووجد الرشيد نفسـه فى دوامة لا مخرج منها سوى بالحل الذى أشار به يحيى بن خالد ، وهو عقد ولاية العهد للمأمون بعد الأمين ، ثم يكون القاسم ثـالثهما وقد ظن الرشيد أنـه أنقذ العرش من مخاطـر الانقسـام والفتن . والحقيقة أنه وضعه على حافة الخطر وأشعل بيده فتيل القنبلة التى انفجرت بعد أيام قليلة من موته سنة ١٩٣ هـ .

والمؤكد أن الـرشيد كان يـدرك فى أعماقه صعوبـة تنفيذ وصيته ، وسـاورته الهواجس مـن ناحية ابنه (الأمين) وانتهـى آخر الأمر إلى أنـه ذهـب إلى الحج فى عام ١٨٦ هـ وصحب معه أبناءه الثلاثـة واستكتب كلا منهم عهدا بخط يده باحترام نظـام الوراثـة ، وأشهد على ذلك الأمـراء والفقهاء والـوزراء والحجاب وقادة الجيـش . ثم وضع العهـود فى جوف الكعبـة ومنع حجاب الكعبـة من إخراجها تحت أى ظرف .

وتحققت هـواجس الرشيـد ، فلم يكد الـرشيد يصعد إلى الـرفيق الأعلى ، حتـى بدأ الفضـل بن الـربيع يلعـب لعبته الخطيرة ويحرض الأمين على نقـض العهد ، وخلع أخيه المأمون ، وتولية ابنـه ، وكانت تلك الشرارة التى أشعلت

نار الحرب بين الأخوين . ولن أحكى تفاصيل هذه الحرب ، فحوادثها طويلة ومؤلمة ، وتستطيع أن تقف عليها فى كتب التاريخ الأولى مثل الطبرى وابن الأثير وابن كثير ومروج الذهب للمسعودى . ولكننى سأكتفى بأن أعرض لك ملخصا لها لترى كيف أدى زوال البرامكة إلى اختفاء صوت العقل والحكمة ، وخلو الميدان للفضل بن الربيع ليعيث فى الأرض فسادا ويشعل البلاد بنار الحرب والدمار . ولك أن تسأل : هل كان من الممكن أن تقع كل هذه الأحداث الجسام لو كان البرامكة فى مواقعهم إلى جانب الأمين يخلصون له النصح ، ويشيرون عليه بالمشورة الصادقة (!!) وأقول لك بضمير مستريح إن هذه الفتنة لم تكن لتقع لو كان البرامكة أحياء . . ويكفى أنهم استطاعوا إخماد ثورة يحيى بن عبد الله (العلوى) أخى محمد النفس الزكية . ونجحوا فى استمالته حتى ألقى سلاحه دون إراقة قطرة دماء واحدة . . وصحبوه إلى الرشيد حتى عفا عنه .

فرسان الساحة :

لقد غاب البرامكة عن الساحة ، وتركوا وراءهم فراغا كبيرا ملأه الفضل بن الربيع بكل ما فى نفسه من أحقاد وضغائن . ولقد مات الرشيد وهو فى طريقه إلى خراسان لإخماد ثورة محلية وعندما اشتدت عليه العلة حط رحاله فى مدينة طوس ــ مسقط رأس الإمام الغزالى . وأمر ابنه المأمون أن يواصل السير إلى خراسان على رأس الجيش ، وأوصى إن صعدت روحه أن يئول كل ما فى عسكره من مال وأثاث وخيل وسلاح وعبيد إلى ابنه المأمون . وأشهد على ذلك الحاضرين . . وأوصى أن يلحق الجيش ومعه الفضل بن الربيع بالمأمون . ولكن ما إن صعدت روح الرشيد حتى نكص الفضل على عقبيه ، ورفض تنفيذ وصية الرشيد ، وأسرع إلى بغداد ليكون إلى جوار الخليفة الجديد ، وينفث فى روحه نزعة التمرد والانقلاب على أخيه وخلعه من ولاية العهد .

أما المأمون فقد كان موقفه متسقا مع خلقه الرفيع ، فما إن علم بوفاة أبيه حتى جمع قواد أبيه وطلب منهم إعلان البيعة للخليفة الجديد ، وكتب إلى الأمين معظما ومقدرا ، وبعث إليه بما خف حمله وغلا ثمنه من هدايا خراسان .

أما الأمر فى بغداد فقد كان يدل على شر مستطير - على حد تعبير الشيخ الخضرى - فإن الفضل بن الربيع بعد عودته إلى العراق ناكثا للعهود التى كان الرشيد أخذها عليه للمأمون ، رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوما وهو حى لن يبقى عليه ، فأخذ يحث الأمين على خلعه وأن يولى العهد من بعده إلى ابنه موسى ، ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود ، فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه ، فأول ما بدأ به أن كتب إلى جميع العمال فى الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمارة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم ، فلما بلغ ذلك المأمون ، وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم ، أدرك أنه يدبر فى خلعه ، فقطع البريد عنه ، وأسقط اسمه من الطراز ، وتحقق ما كان يتوقعه المأمون ، إذ بعث إليه الأمين ثلاثة نفر يطلبون منه أن يقبل تقديم موسى بن الأمين على نفسه فى ولاية العهد ، ولكنه امتنع ، ولم يقلل ذلك من غلواء الفضل بن الربيع ، بل مازال يلح على الأمين كى يخلع أخاه المأمون .

وتأكد المأمون أن الأمور تسير من سيىء إلى أسوأ ، وأن أخاه قد أسلم زمام أمره إلى رجل السوء الفضل بن الربيع ، وإنه لا مفر من الصدام المباشر بينهما فاتخذ من التحصينات ما جعل إقليم خراسان دولة شبه مستقلة عن العراق - مهد الخلافة . وأخذ يعد العدة للقاء المحتوم ، ويتحبب إلى الناس بالعدل والإحسان ، بينما الخليفة الأمين يقضى ليله فى العبث واللهو بين أحضان الجوارى ، ويقضى نهاره فى الاستماع إلى وشايات الفضل بن الربيع ، وبذلك سار الركبان بغدر الأمين وحسن سيرة المأمون ، وانتهز الفضل فرصة امتناع المأمون عن التنازل عن ولاية العهد ، فألح على الأمين فى خلع أخيه وتولية ابنه ، واستجاب الخليفة الضعيف لنصيحة الوزير الخبيث ، بل فعل ما هو

أكثر من ذلك ، إذ بعث بعض حجابه إلى مكة المكرمة ، وتمكنوا من سرقة العهود التى حفظها الرشيد فى جوف الكعبة ، فلما جاءوا بها مزقوها (!!) .

وبذلك لم يعد أمام الأخوين إلا الاحتكام إلى السيف ، وانهارت جسور الأخوة ، وبات كل منهما يستعد للظفر بأخيه .

نهاية المأساة :

هل يستطيع رجل واحد أن يتسبب فى إفساد دولة ؟ وتخريب نظامها ؟ وإشعال نار الحرب الأهلية بين أبناء الأمة الواحدة ؟ أقول لك : نعم إذا كان له صفات وأخلاق الوزير الربيع بن يونس وولده الفضل . . لأن نزعة الشر التى تمكنت منهما أدت إلى هدم ما بناه الأخيار . . وكان كل منهما يجد لذة غريبة فى الإيذاء والبطش والنقمة على المشاهير والعظماء ــ وفى طليعتهم البرامكة ــ رغم أن القمة فى البلاط العباسى كانت تتسع للبرامكة وغير البرامكة من الوزراء والقادة والحجاب والكتاب ، ومنهم الربيع وابنه الفضل ، وقد بلغ كل منهما مكانة مرموقة فى الحكومة العباسية ، ولكن الحقد المتأصل فى نفسيهما كان ينضح شررا قاتلا . . وسما زعافا بحكم الفطرة والجبلة قبل أن يكون بفعل الحوادث الطارئة . . وما ظنك برجل ــ هو الفضل بن الربيع ــ أشعل نار الفتنة بين الأخوين ، الأمين والمأمون ، وأخذ يغرى الأمين كى يغدر بأخيه المأمون ويبدأه بالشر ويخلعه من ولاية العهد ، فكانت تلك الحرب المهلكة التى انتهت بهزيمة الأمين ، وكان مسلك الفضل مع سيده الأمين قبل مصرعه فى غاية الخسة والدناءة ، فما إن لاحت له تباشير الهزيمة حتى تخلى عن سيده وتركه وحيدا يواجه جيوش المأمون ويلقى مصيره التعس ، أما هو ــ الفضل ــ فقد لجأ إلى وكر يعصمه من القتل ، وبقى فى مخبئه كالفأر المذعور يرقب النار التى أشعلها بيده القذرة وهى تفتك بعشرات الألوف من أهل بغداد . فلم يبق فيها بيت إلا وفيه قتيل أو جريح أو أسير . .

ظل الرجل الأفعى فى وكره حتى دخل المأمون بغداد دخول الظافرين ، فتوسل إليه الفضل كى يصفح عنه ويغفر له جريمته الكبرى ، والمدهش أن المأمون ـ الذى فطرت نفسه على حب العفو ـ غفر له ما تقدم من ذنبه واكتفى بأن تركه يعيش مهملا حقيرا مثل سقط المتاع . والأكثر دهشة أنه مات ميتة طبيعية ولم يلق حتفه على النطع مثلما حدث لكل الوزراء الذين سبقوه ومنهم أبوه الربيع بن يونس . وهذه إحدى غرائب التاريخ العباسى .

إن مسلك الأب وابنه شغل بال المؤرخين والباحثين الذين تابعوا نشاطهما الأسود ، وراحوا يبحثون عن الأسباب التى جعلت كلا منهما يحرك حوادث التاريخ مدفوعا بنزعتى الحقد والشر . وإذا كان هناك من يفسر التاريخ تفسيرا ماديا ، فإن هناك من يفسره تفسيرا نفسيا ، ويبحث فى ظروف النشأة الأولى لحياة الطغاة والجبارين ، ويرى فيها المحرك الأساسى لكل ما ارتكبوه فيما بعد من جرائم وآثام ، فلاشك أن طفولة «هتلر» القاسية كان لها تأثير كبير على مجرى حياته ، وإن حياة الصعلكة والفقر والضياع التى عاشها فى شوارع فيينا كانت سببا فى نقمته على العالم وازدرائه للإنسانية جمعاء . . ولم يتورع أن يشعل حربا ضروسا أهلكت خمسين مليونا من البشر ، ولاشك أن ظروف النشأة غير السوية التى عاناها جبار مشهور هو زياد بن أبيه ـ أو ابن سمية كما كان يسمى ـ تركت بصماتها المؤثرة على حياته ، فقد ولد وهو لايعرف له أبا ، إلى أن ألحقه معاوية بن أبى سفيان بنسبه كثمن لصفقة سياسية فى صراعه مع على بن أبى طالب ، انتهت بانضمام زياد إلى معسكر معاوية ، وبطشه بأهل العراق ـ شيعة على ـ بطشا صار مضرب الأمثال فى العنف ، ولم يكن غريبا أن يأتى الولد ـ عبيد الله ـ على صورة أبيه ، وأن يتم على يديه مقتل الحسين فى مذبحة كربلاء (!!) وكان شأن زياد وولده ، كشأن الربيع وابنه الفضل ، فى توريث أسوأ الصفات ، وأسفل الأخلاق .

طفولة تعيسة :

ولو فحصت فى تاريخ الطغاة فسوف تلحظ أنهم ذاقوا فى طفولتهم مرارة الحرمان من عطف الأب ، أو حنان الأم ، أو احترام المجتمع ، وتظل هذه المرارة تسرى فى مجرى حياتهم كمسرى الدم فى الشرايين ، حتى تتحول إلى مركب نقص يجد متنفسه فى الإيذاء والانتقام من البشر أجمعين ، ولأستاذ التاريخ الإسلامى الدكتور أحمد شلبى دراسة نفسية بديعة فى شخصية الربيع ابن يونس وولده الفضل ، اعتمد فيها على أبحاث عالم النفس Adler فى تكوين مركب النقص ، وأبحاث عالم آخر هو Hadfiele عن ظروف النشأة الأولى عند الطفل وأثرها فى تكوين شخصيته .

أما Adler فيبدأ بتبيان الفرق بين مركب النقص ، والإحساس بالنقص ، وهو يرى أن مركب النقص عقدة لا شعورية تبقى كامنة فى لاشعور الفرد وتظهر نتائجها فى تصرفاته ، دون قصد منه ، وهذه العقد اللاشعورية تتكون خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل . وبالرغم من أن الطفل يبدو فى هذه السن صغيرا ساذجا إلا أنه يسجل كل ما يحيط به ، وتتكون عنده العقد النفسية ومركبات النقص ، أما الضعف الطبيعى الذى يبدأ به الطفل حياته فإنه يتزايد إذا عومل الطفل معاملة سيئة ، أو صادف بيئة يحس فيها أنه تعيس ، أو كان به نقص عضوى ، أو إحساس بنقص ، ومن الأمثلة التى تضاعف عوامل الضعف الطبيعى فى الطفل : التهكم والاستهزاء والقسوة والزجر والانتهار ، وهذه المضاعفات التى أنشأت مركب النقص تدفع الطفل إلى طريق من ثلاثة :

١ ـ أن يصاب بصدمة عصبية تجعله يميل إلى الإذعان والخضوع إلى بيئته ، والاقتناع بتخلفه عن أقرانه .
٢ ـ أن يعمل طيلة عمره ليعوض مابه من نقص .
٣ ـ أن يتصارع مع البيئة التى يعيش فيها ، فيكون دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه ، ويسهل عليه أن يتراجع وينهزم إذا ضعف عن الهجوم .

ويظل الطفـل ، بعد مـا يشب ، متـأثرا تـأثرا لا شعـوريا بما سجلـه إبان السنوات المبكرة من حيـاته ، ومن أجل هذا نجد الطفل الذى عـومل معاملة سيئة فى طفـولته ، يصير عنـدما يكبر أبا مستبـدا ، أو زوجا قـاسيا طـاغية ، لينفس عن الضغط الذى احتبسه فى نفسه أيام طفولته .

أما الإحساس بالنقص فهو مظهر شعـورى يشعر به كل شخص عادى فى مواقف كثيرة من حياته العادية ، دون توقف على سن معينة ، وهذا الشعور قد يزيد عن الحد العادى ، فينقلب إلى سمة من سمات الشخصية المرضية فيشعر دائما بـأنه غير قـادر على مجاراة غيره بـالطرق المشروعـة ، فيعمـد إلى الوسـائل المستترة التى يستطيع عن طريقها أن ينال مـن منافسه ، ويجهد الإنسـان نفسه ليتفوق على الآخـرين ، وتنمو هـذه الرغبـة فى التفوق مع نمـو الشخص لأنها ضرورة ذاتية للحيـاة نفسها ، فهو دائما يكافـح طلبا للغلبة والانتصـار لينقل نفسه مـن النقص إلى الـمـال ، ويستمر الإنســان فى هذا النضال السلمـى مالم تقف عقبـة فى سبيل نجـاح محاولته ، فـإذا اعترضته صعـوبات وعقبـات من جهـة الآخريـن فإن ذلـك يؤدى بـه إلى الغضـب الذى يتمخـض عنه سلـوك عدائى .

ويرى Adler أن الشخص الذى تكون فيه مركـب النقص فى طفولته وحاول أن يعوض هذا النقص عندما كبر فاعترضتـه عقبات من جهة الآخرين ، هذا الشخص إذا كان موهوبا متفوقا عقليا ، فإن اصطدامه بمن يعوقه عن الوصول إلى الكمال يكون عنيفا قاسيا ، وربما لجأ إلى طرق شتى من الانحراف ليعبر عما يخالج نفسـه من نـزعات مكبـوتة كـالحيل والكيـد دون اعتبار للقيـم والمعايير الأخلاقية .

الحماية والأمن :

أما Had Field فموجز نظـريته أن المطلب الرئيسى الذى يحتـاج إليه الطفل هو : الحمايـة والأمن ومن أجـل هذا كان محتـاجا لمن يحميه ، ويقيـه الخطر ،

ويمده بالطعام والشراب ويهيىء له العناصر اللازمة لحياته ، وحاجة الطفل ليست حيوية فقط ، ولكنها أيضا نفسية ، والذى يحمى الطفل عادة ويمده بحاجاته هى الأم لأنها تستجيب بطبعها إلى هتافه الصامت ، وتكمل نقصه ، وتقوى ضعفه بإحاطته بجو من الحب ، فتقضى الأم بذلك حاجات الطفل ، لا على أنها واجبات تؤديها ، وإنما على أنها لذة تمارسها ، وتجد فى ذلك سعادة ونشوة ، أما الطفل فإن حاجته إلى الحماية والطعام تصبح عنده وسيلة ينشد بها ما هو أعظم عنده منها ، وهو حب أمه وشغفها به ، وهو يبكى لتسرع إليه فيحس أنها تحبه ، ويترتب على ذلك أن يصبح حب الأم للطفل أهم مطالبه ، والمحور الهام فى حياته والهدف الأسمى له من الناحيتين الحيوية والنفسية ، وعندما يتأكد الطفل من حب أمه وحمايتها ووقايتها له تتربى فيه الثقة بالنفس ، ويستطيع أن يواجه الحياة ، ويلقى بنفسه فى متاعبها دون تهيب ، لأنه واثق من أنها ستنتشله إذا أخفق ، وهو بذلك يهيىء نفسه للمستقبل ، ويحس بأنه تخلص رويدا رويدا من حاجته للحماية ويكون حريته واستقلاله ، ويدخل معمعة الحياة ، ويقتحم صنوف المخاطر ، محتملا العبء والتبعة وحده دون اعتماد على شخص آخر .

والطفل يعكس مايراه فى طفولته ، فإذا أحس بأنه محبوب ، تعلم هو أن يحب الآخرين ، وعلى هذا فالطفل الذى حظى بحب أمه فى طفولته ينشأ اجتماعيا يحب الناس ، ويصير وفيا لأصدقائه ، قرينا موفقا فى زواجه ، فإذا حرم الطفل هذا الحب ، كانت نظرته للحياة نظرة مغايرة ، وغمرته حالة من الاضطراب النفسى ، ويفقد الثقة بالنفس ، وتشمله حساسية الخوف من تحمل المسئوليات ، فلا يلقى بنفسه فى المخاطر ، ولا يمارس التجارب ، ويصبح عصبيا حاد المزاج . كما أن حرمان الطفل من الحب يجعله لايحب الآخرين ، وإنما يحب نفسه ليعوضها مافقدته وبهذا يصير أنانيا مبغضا غيره ، ثم يصير عصبيا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل من الحماية يجعله يحس بأنه مهدد ، عرضة لعدوان الآخرين ، وينظر للعالم نظرة عدائية فيتصدى للناس ويعاديهم .

ويأخذ الدكتور أحمد شلبي هذه الأفكار النفسية ويبحث بها عن العلة الكامنة فى نفس الربيع بن يونس والتى تسربت منه إلى ولده الفضل . ذلك أن طفولة الربيع كانت طفولة بائسة حقا ، طفولة تعسة شقية ، فهو كما يقول الأصفهانى نقلا عن إل أبى فروة « لقيط ، وجد منبوذا ، فكفله يونس بن أبى فروة » أما الجهشيارى فيروى أن يونس بن أبى فروة كان شاطرا من شطار المدينة ـ أى لصا يقوم بأعمال السلب السريع ـ واتصل بجارية فجاءت بالربيع ، فولد عبدا رقيقا ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثى خال الخليفة السفاح ، ويتحدث الربيع عن نفسه فيقول : كنت فى خمسين وصيفا أهدوا للخليفة ، ففرقنا فى خدمته ، فصرت إلى ياسر صاحب وضوئه أعاونه فى عمله .

تلك هى طفولة الربيع القاتمة : لقيط منبوذ ، أو عبد اشترى بالمال ، أو أحد خمسين وصيفا أهدوا إلى المنصور ، ثم يكون حظه أن يلتحق بمن يحمل الإبريق للخليفة ، وكل هذا يدلنا ـ يقول الدكتور أحمد شلبى ـ على أن الربيع عانى طفولة مرة ، وكان هدفا لكثير من الزجر والانتهار والتهكم والاستهزاء والقسوة ، وقد رأى غيره من الأطفال السعداء الباسمين المحظوظين فى قصر الخليفة ، ووازن بين ذلك وبين حرمانه وتعاسته وما يعانيه من إهمال وازدراء ، فتكون عنده مركب النقص . . هذا عن الربيع ، أما الابن ـ الفضل ـ فقد كان مثقلا بالعبء الذى ورثه له أبوه ، لقد كان ابن لقيط ، وطالما عانى فى طفولته من جراء هذا العار ، ولما كان الأب ذكيا موهوبا بلا شك ، فإنه لم يقنع بالحالة المتواضعة التى نشأ فيها ، كما لم يرقه أن يبذل العمر كله مجدا ليعوض ما به من نقص ، وإنما أراد الطفرة ، وحاول أن يصل بسرعة إلى هدفه وبغيته ، ولذلك لجأ إلى الطريق الثالث الذى تحدث عنه Adler فتصارع مع البيئة التى نشأ فيها ، وكان دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه عن الوصول إلى غرضه ، وسار الفضل سيرة أبيه ، واتضحت فيه نظرية Adler لأنه عندما فشل لم يثبت أمام العاصفة ، وإنما تراجع واختفى .

وهكذا عانى الربيع وابنه الفضل طفولة تعسة كونت فيهما مركب النقص ، فإذا سرنا معهما إلى عهد الرجولة ، وجدنا أنه لم يتوفر لهما فى هذا العهد راحة النفس ورضا الضمير ، على الرغم من أن الظروف قذفت بهما إلى المجد ، ووضعتهما فى أسمى المناصب ، وعلى العكس قذفت بهما هذه المناصب إلى العيش مع أقران وأتراب يفضلونهما فى كثير من الصفات التى كانت ذات خطر عظيم فى تلك الأيام ، لقد عاشا مع البرامكة . . ومع آل سهل . . ومع معن ابن زائدة . . ومع معاوية بن يسار . . ومع طاهر بن الحسين . . وغيرهم من السادة والقادة والنابهين ، فظهر فى الربيع وابنه الإحساس بالنقص بالقياس إلى هؤلاء الأقران ، ولم تقف المسألة عن هذا الحد ، إذ لم يغفل أقران الربيع وابنه عن انحطاط هذين وانحدارهما عن النظراء والأقران ، فكثيرا ما نكأ هؤلاء جراح الربيع والفضل ، وكثيرا ما قذفوهما بالحقيقة المرة ، وإليك بعض ما رواه الجهشيارى . .

قال الربيع يوما لرجل كرر الترحم على أبيه فى حضرة المنصور : كم تكرر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟ فقال له الرجل : إنك معذور فى نقدك ، لأنك لم تذق حلاوة الآباء (!!)وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى البرمكى فى حضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يالقيط (!!) فاضطرب الفضل . وقال للخليفة : اشهد يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهدا يا أمير المؤمنين وأنت حاكم الحكام ! فهو فى هذه القصة طعنه فى نسبه ، وطعنه فى علمه ومعرفته بمخاطبة الملوك .

لقد أراد الربيع وولده أن يكتمل لهما المجد ، ولكن هيهات هذا وفى القصر معاوية بن يسار ، والبرامكة ، وغيرهم من الأمجاد المغاوير ، ويقول ابن خلكان : إنه لما آل الأمر للرشيد ، واستوزر البرامكة ، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن من المقدرة مايدرك به اللحاق بهم ، فكان فى نفسه إحن وشحناء ، فسعى بهم ، وأوغر قلب الرشيد عليهم .

البيئة الجديدة :

ويواصل الدكتور أحمد شلبى تحليله للحالة النفسية للربيع وابنه الفضل بعد أن تكون مركب النقص فيهما منذ طفولتهما التعسة ، فلما شبا وقذف بهما حظهما وذكاؤهما إلى الأمام صدما بالبيئة الجديدة التى كونت فيهما الإحساس بالنقص ، ولم يكن لهما من المقدرة مايشجعهما على مواجهة هذه الظروف وجها لوجه ، ثم كانت لهما موهبة ظاهرة فى الناحية العقلية ، ومن أجل هذا ظهر فيهما الانحراف فى التعبير عما بنفسيهما من نزعات مكبوتة ، فلجآ إلى التحايل ، والكيد ، والدس دون أى اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية .

ومسألة أخرى يستقيها الدكتور شلبى من كلام Had Field وهى مسألة كون الربيع لقيطا أو ثمرة التقاء غير شرعى بين يونس بن أبى فروة (اللص العريق) وبين أمة (جارية) تقوم بالمدينة ، واشتراه زياد بن عبد الله ، وسواء أكان هذا وذاك فقد حرم الربيع أمه ، وحرم حب أمه ، وهذا الحرمان جعل الربيع حذرا ، لايواجه العالم بصراحة ، وإنما يواجهه بغموض والتواء ، كما جعله أنانيا ، مبغضا لغيره ، عصبيا ثوريا ، يحس بأنه هدف لهجوم الآخرين ، فيبادر هو بالهجوم عليهم ، وتتعمق فى نفسه نظرة عدائية بالنسبة للعالم ، وقد توفرت كل هذه الاتجاهات فى الربيع ، كما رثها ابنه الفضل .

دراسة مقارنة :

وبناء على هذا التفسير النفسى لحالتى الربيع وابنه ، يعقد الدكتور شلبى دراسة مقارنة تبين لنا مركز الرجلين بين أقرانهما فى هذه البيئة الجديدة ، ويستخلص منها أن هؤلاء الأقران كانوا يفضلونهما فى الصفات التى كان يتغنى بها الشعراء ويمجدون ذويها وهى :

المحتد ، والكرم ، والبلاغة ، وقيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ، وغيرها

من الصفات التى يجب أن يتحلى بها من يتصدى لشغل هذه المناصب الرفيعة وإدارة هذه الدولة الفسيحة ، فقد كان المحتد وطيب الأرومة من أهم دواعى الفخر والتباهى فى تلك الأيام ، وكان الناس ـ كشأنهم فى أغلب العصور التاريخية ـ يتفاخرون بالأجداد وعزة الأصل ، وبينما كان الربيع وابنه يفتقران إلى هذا الشرط ، فإن البرامكة كانوا ينتسبون إلى أصل فارسى عريق وكان جدهم الأكبر يعمل سادنا لمعبد المجوس ، وكان بنو سهل ينحدرون من أصلاب ملوك الفرس الأقدمين ، وكذلك كان أصل طاهر بن الحسين ، وإذا حق لكل هؤلاء أن يفخروا بما أدوه إلى الدولة العباسية سواء عند نشأتها أو عند اكتمال قوتها ، فلم يكن عند الربيع أو ابنه مايفخران به ، والمقارنة بين دوريهما ودور البرامكة تضعهما فى الكفة الناقصة ، ولن ينسى تاريخ الدولة العباسية مافعله البرامكة من أجل عزة الدولة وصيانة عرش العباسيين من العواصف ، وكان خالد بن برمك يخوض المعارك ضد الأمويين ، وبفضله استطاع الجيش العباسى أن يقضى على فلولهم ، أما دور يحيى وأولاده فى خدمة الدولة فهو أنصع من أن يخفى . وكانت عبقريتهم الإدارية مضرب الأمثال ، وتتجلى قيمتهم بالمقارنة مع سياسة الربيع وابنه التى كانت مضرب المثل فى الفشل وقصر النظر ، ويلتمس الدكتور شلبى العذر لهما لفقرهما السياسى ، فالسياسة علم عميق يحتاج إلى سعة اطلاع وخبرة ، ودربة ، وكان ذلك عسيرا على الربيع الذى كان بالأمس القريب خادما صغيرا ووصيفا حقيرا؟ وكيف يقاس بالبرامكة فى هذا الشأن ، والبرامكة ذوو المجد المؤثل ، قرءوا حكمة الفرس ، وعرفوا سياسة الدول قبل أن يصلوا إلى بلاط العباسيين ، وفى المقابل لم يكن للربيع بن يونس ، موقف واحد يذكر فيشكر ، ويدل على سداد الرأى ، وعلو القدم فى علم السياسة ، أما الفضل فقد أغرق فى الفشل وأبعد فيه ، وقد سجل التاريخ عليه أمورا تدل على جهله بسياسة الدولة وتدبير الأمور .

الفهـرس

رقم الايداع : ٩٦/١٤٢٥٠
I.S.B.N. 977 - 09 - 0367 - 1

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذا الكتاب

تلفَّت ابن المقفع حوله فوجد الاستبداد يتغلغل فى قمة الدولة ، ورأى الفساد يضرب أطنابه فى مؤسساتها الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية ، ووجد الخلل يتسرب إلى الحكم على أيدى فئة من الوصوليين احترفت الإحاطة بالحكام لتضليلهم والتغرير بهم وحجب الحقيقة عنهم ، فالأموال الجمَّة تحمل من الأمصار والولايات إلى بغداد - عاصمة الخلافة - بدون سجلات تضبطها أو دفاتر تحاسب الجباة على ما تحت أيديهم من أموال ، والقضاة يتضاربون فى أحكامهم فى القضية الواحدة من بلد إلى بلد لعدم وجود قانون موحد يرجعون إليه فى أحكامهم ، وقادة الجند - نجوم العهد الجديد - يعيشون فى الأرض فسادا ، وينشرون بين العامة دعاوى الذل والخنوع للحاكم المستبد تحت ستار الطاعة لولى الأمر ، وبلغوا فى ذلك مبلغا جسيما حتى قال قائلهم : لو أمَرَنا أميرُ المؤمنين أن نستدبر القبلة فى صلاتنا . . لسمعنا وأطعنا . . ! !

ومن عادة الحكومات المستبدة أن تستكبر على النصيحة ، وتستعلى على النقد ، ولكنها فيما بينها وبين نفسها تأخذ به ثم تتظاهر بأنها تحركت بمحض اختيارها حتى لا تعطى لمعارضيها فرصة الإدلال عليها ، وهو - كما ترى - تصرف ينم عن ضعف الشخصية ، لأن الحكومة القوية لا تجد حرجا فى النزول على رأى المعارضة مادام هذا الرأى يهدف إلى إصلاح العيوب وسد الثغرات والسعى نحو الكمال ، بل إن الحكومة المستبدة لا تتورع عن كتم أنفاس المعارض إذا اشتمت منه رائحة الاستعلاء عليها ، والتمست فيه تعمقا فى كشف معايبها وفضح خباياها . .